ظمأ

✍ د / صالح الفرجانى أبو بيصير

الكتاب : ظَـمَـأ (مجموعة قصصية)

المؤلف : د. صالح الفرجانى أبو بيصير

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٥

رقم الإيداع : ١٥٨٣ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978-977-493-207-6

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

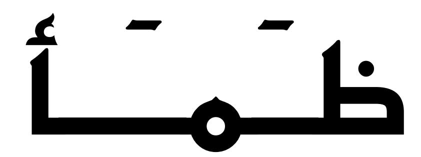
٨٠٥٣ ش الجامعة الحديثة. الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت فاكس ٢٧٢٧٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة





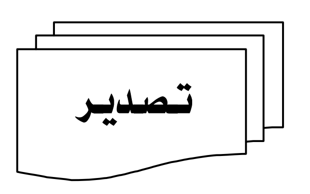
مجموعة قصصية

د/ صالح الفرجاني أبو بيصير

إهـــداء

إلى واحتي وملاذي من التيه في صحراء البشر ،

أمي وزوجتي وأبنائي.



د. الصادق إبراهيم البصير

أستاذ اللسانيات بجامعة سبها

حاولتُ قراءة المجموعة القصصية لأخينا الأديب الواعد الصاعد صالح الفرجاني أبو بيصير، فلم أستطع أن أتخير لها منهجًا معينًا من مناهج القراءة المتعددة، وبعد جُهد مضنٍ وجدتُ شِعابًا تضيق وتتسع، وطبقاتٍ صخرية متعددة في أدغال هذه المجموعة، التي استقرَّ رأيي على اختيار منهج القراءة الحفرية، التي تجمع ما بين القراءة ومناهج ونظريات علم الجيولوجيا، فكانت مقاربة ما بين جانب إنساني فكري، ودراسة الطبقات الصخرية للأرض، حيث تمثّل هذه المجموعة القصصية أرضًا صخريةً متعددة الطبقات فمنها: الطبقات الرسوبية، التي وجدتها في هذه المجموعة متصلة في التماسك النسقي والانسجام الفكري الذي يمثل ترسبًا فكريًا، يُكوِّن طبقة تتصف بها هذه المجموعة في ترابط معانيها ولُغتها ونسقها الفكري، ليمثل لبنة بارزة وبنية مترابطة متعالقة المضمون والأفكار.

ثم ما أحوجني إلى القراءة الفكرية الحفرية، التي تحفر في طبقات صخور المجموعة القصصية، عندما وجدتُ صخورًا رمليةً تمثل النقاء والعذوبة والليونة البارزة، التي تتصف بها هذه المجموعة من حيث سهولة اللغة، قواعدَ وأسلوبًا ومعنى.

أما الطبقة الثالثة فهي الطبقة البركانية التي تمثل متاهة في البُعد الفلسفي وعدم فهمه لأول وهلة، وكذلك تماسك وصلابة الفكرة، وقد اتحدَّ هذان العنصران فأبرزا لنا عالمًا مجهولاً يذكرني بالملاح التائه عند "علي محمود طه"، الشاعر المهندس الذي استطاع أن يلج المجهول، كما ولجت هذه المجموعة، إنه عالم الملاح التائه الذي وجدته يتفق مع شراع إلى المجهول، إن المجهول والتائه هما عنصران مهمان جمعا أدب "علي محمود طه" و"صالح الفرجاني أبو بيصير"، إنه صراع الإنسان نحو المجهول، نحو غيب لا يعلمه إلا المولى عز وجل، والنفوس الطيبة المفعمة بالإيمان هي التي تتفهمه... لو قيل لي سمِّ هذه المجموعة أو ضع لها عنوانًا لاخترتُ لها "الملاح التائه" الذي يخاطبه الشاعر المهندس بقوله:

أيُّها الملاحُ قُمْ واطوِ الشِّراعا   لم نطوي لُجّةَ اللّيلِ سراعا
جدِّفْ الآنَ بنا في هينةٍ   وجهةَ الشّاطئ سيرًا واتّباعا
فغدًا يا صاحبي تأخذنا   موجةُ الأيّامِ قذفًا واندفاعا

عبثًـا تقفـو خُطـى الماضـي الـذي خِلـتُ أنَّ البحـرَ واراه ابتلاعـا
ودعِ اللّيلـةَ تمضـي، إنّهـا لم تكـن أوّل مـا ولّـى وضـاعا

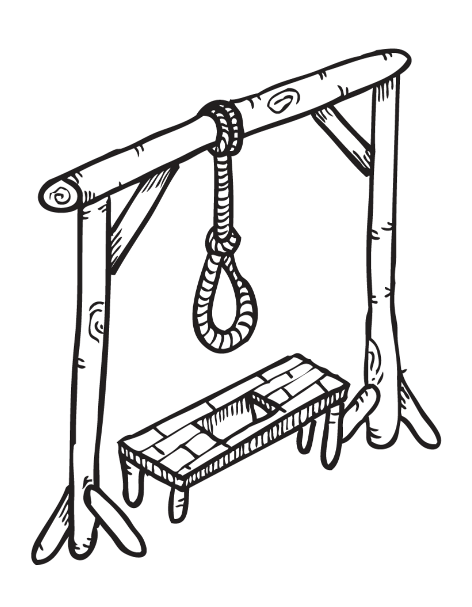
إنه الملاح التائه الذي وجدته في هذه المجموعة القصصية، التي تمثّل عالمًا منسوجًا من عالمٍ يحيط بها، لتذكرّني بنظرية في النقد الفرنسي وهي:

أن الأدب رؤية العالم **La vision de monde**

ثم تنعكس هذه الرؤية في عمل أدبي يمثل قصيدة أو لوحة أو قصة أو رواية، وهذا الانعكاس ما هو إلا إرجاع صورة العالم كما هي لتظهر في العمل الأدبي، إنها انعكاس الرؤية بمرآة فاحصة، وهو ما يمثل **La reflexion de vision dons artes** .

يالها من لحظات سارة استمتعتُ بها وأنا أقرأ هذه المجموعة، لأكتشف عالمًا مجهولاً لا يُعرف بقراءة واحدة، بل بعدة قراءات فاحصة، كما هو حال هذه المجموعة.

• • • •



خـالـد

قطع الممرَّ بخُطاه القصيرة المُكَبَّلة، تذكَّر حكايات أمه عن طفولته وأولى خطواته المتعثرة التي صفَّق لها الجميع، تبسَّم لهذه اللمحة من ذاكرته المكتظة، تساءل في نفسه: لقد دخلتُ هذا المكان ورأيتُ هذه الوجوه وسمعتُ فحيح هذه السلاسل من قبل!.

رائحة العفونة تطغى على المكان، سواد الظلمة يُحفِّز النفس على التهيؤ لأي شيء، لا سيد في المكان غير الجرذان والخفافيش وطيور البوم.

كان يأمل أن تصل خطواته إلى مصدر الضوء آخر الممر، انعطفوا به إلى غرفة في منتصفه تتعالى فيها الأصوات وتعمها الفوضى.

تفحّص خالد وجوه الجمع، وجدهم كما كانوا في كل مرة، الأشقر في المقدمة تغيرت هيئته وكلماته، صار عَلَمه قلادة أخفاها تحت ملابسه، هناك في الطرف ذاك القميء منحني الظهر يحس أنه ليس محبوبًا حتى لسيده.

صعد درجات السلم القليلة، نظر إليهم بعينين حادتين، كأنه يَخْرق الزمن ليفرد جناحيه في الفضاء، متساميًا عن كل ما دونه، ليبدأ رحلته منتشيًا بصليل السيوف وصهيل الخيل، معانقًا صيحات الأطفال وهم يَقذفون بحجارة من سجيل، متعطِّرًا بدخان البارود وغبار المعارك ليصافح الأبطال من هنا وهناك.

خطا خالد خطوته الأخيرة قبل أن يُلَفَّ الحبلُ حول رقبته... إنه واثق أنهم لن ينالوا منه، وأن راياتهم ستُنكس ككل مرةٍ.

2006-1-2

سبها – ليبيا

● ● ● ●

القديس

في حوار شيق جمعني ببعض من عرب الغُربة في إسطنبول، اختلفتْ دروب النقاش وتلوَّنتْ مسالكه.

وردتْ في ذهني فكرة، بادرتُ متسائلاً أن يوجز لي كلٌّ منهم تعريفًا للقديس..

قال مرعي: إنه أكثر الناس صلاحًا، وهو الساعي دائمًا لإعانة الفقراء والمحتاجين. ثم تكلم سالم فقال: أرى أن القديس من يُخلِّص الناس ويحرِّرهم من المفاهيم الظالمة. تنحنح هيثم وقال: إن القديس من يستطيع أن يقنع الناس بمعتقده ويجعلهم يموتونَ دونه. تكلمتُ وأنا أجول ببصري بينهم قائلاً: أرى أن القداسة صفة نخلعها على بعضٍ مِن مَن هم بيننا، حتى نشعر أن العالم مازال بخير.

2012-1-16

إسطنبول – تركيا

● ● ● ●



الأمل الضائع

رعشة صوتها الأنثوي وهي تودِّعه أظهر لهفتها للقاءٍ جديد، عَذْبُ كلامِه لم يكتمل، تشبث بصرها بعينيه يسأله البقاء، بصيص النور الذي لاح في بريقهما يُمنيها بما يلجُّ في صدرها.

استدار وتنفس الصعداء كصيادٍ أحسن إعداد الشَّرَك؛ ورأى فريسته تترنح للسقوط في الفخ. يُلهب مشاعرها في كل لقاء لتُسلِّم له ما شيَّدتْ حصناً تلو الآخر. أفاقت لتجد أنها فرَّطتْ في كل شيء لتنال لا شيء.

لأن الحياة تواصِلُ مسيرتها؛ عاشت شَهْد أيامها، لا يكسر رتابة عيشها إلا سماع ذاك الكلام العذب، وبريق ذات العينين، لتعرف أنها أمام ذئب بشري.

2011-9-30

براغ – تشيكيا

● ● ● ●



شراع إلى المجهول

صحَتْ الجَدَّة (فاتي)[1] ككلِّ يوم، قطعتْ الطريق الذي يتوسط أكواخ القرية. اتجهتْ نحو البحر متكئة على عُكَّازها، غير عابئة بثقل ثمانين عامًا ونيف على كاهلها، كأن هذه السنين لا تزيدها إلا إصرارًا على ممارسة طقوسها المعتادة كل صباح.

قُبالة الشاطئ أشعلتْ النار في عيدان الحطب، وغطَّستها في البحر، ثم تمتمتْ بكلمات لقَّنتها لها جدتها في صوتٍ ما بين الجهر والهمس، لتنظر بعدها إلى السماء، وتُرجع بصرها إلى نقطة التقاء الأفق البعيد في البحر.

أقفلتْ الجدَّة راجعة وفيض الحزنِ في عينيها تشتد وطأته عن كل مرة، شيخ القرية وحكيمها رقد بالأمس بين أسلافه، لينفطر قلبها عن جرحٍ جديد، وتداعت بفراقه آلام الماضي، غياب ولدها في رحلة للمجهول دون وداع، جعلها تتشبث بعمر كخيوط العنكبوت، أملاً في اللقاء.

---

(1) فاتي : يعني اسم فاطمة. في بعض اللغات غرب أفريقيا ووسطها.

تراءتْ للجدة صورٌ كثيرة من ذاكرةٍ مُجْهَدة، ليصفو منها وجه جدتها وحكايتها اليومية عن جدها (ممدو)[1]، الذي أُخِذ عنوةً إلى عالم وراء البحر. تداعى فيض ذاكرة الجدة بوداعها رفيق العمر، غادر مُبكرًا ليتركها مُرغمًا، بعث لها صورته بلباس الحرب، وعلى صدره رقم ليميِّزه عن غيره.

استقبلها الأطفال عند أول منازل القرية، يتسابقون أيهم يُبلِّغها بوصول ابنتها (نياكو)[2] وحفيدتها (ماولي)[3]. أسرعت كلاهما تُسابق الخُطى، اللهفة تفيض من عيونهما دمعًا يشهد على طول شوق وحنين.

أمضت (نياكو) ليلتها تحكي لأمها مُعاناة طالت بطول سفر زوجها سنين طوال، ليقسم ظهرها رحيل ابنيها لبلدٍ وراء البحر بلا عنوان.

باكرًا في اليوم التالي خرجت الجدة (فاتي)، تصحب ابنتها (نياكو) لتعلِّمها ما ورثت عن جدتها من طقوس، جمعت عيدان الحطب وأشعلتْ النار لتضعها العود تلو الآخر في البحر، كأنها تكويه بما فيها من نار، أو تطفئ نارها به، ثم تمْتمت الجدة (فاتي) في صوتٍ ما بين الجهر والهمس، كرَّرتْ ابنتُها (نياكو)

---

(1) ممادو : يعني اسم محمد. في بعض اللغات غرب أفريقيا ووسطها.

(2) نياكو : تعني حمامة. في إحدى اللغات المحلية غرب أفريقيا.

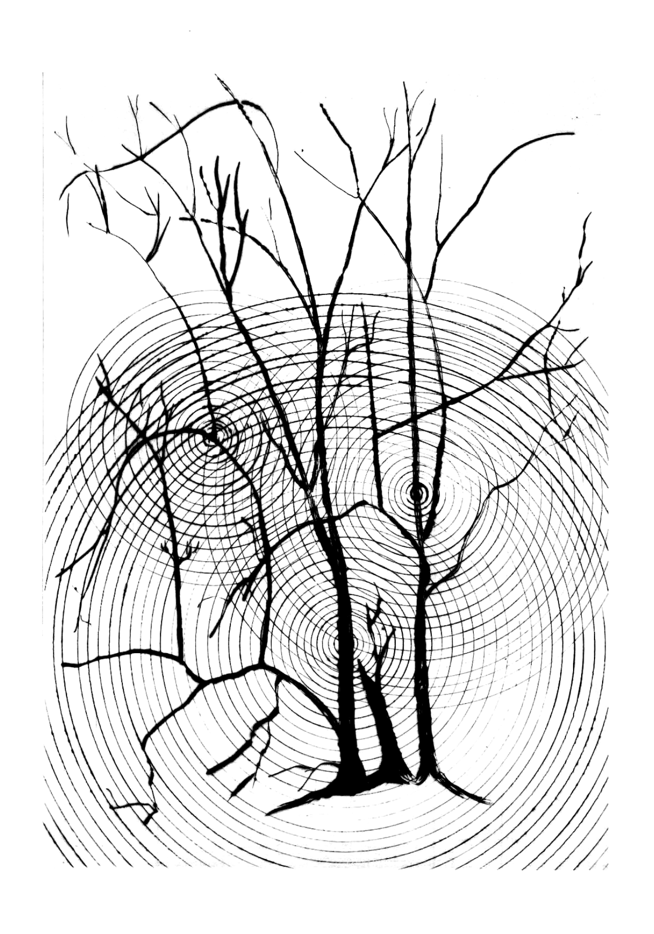
(3) ماولي : تعني الرب موجود. في إحدى اللغات المحلية غرب أفريقيا.

تلك الكلمات لتنظرا بعدها معًا إلى السماء، وتُرجعا البصر إلى نقطة التقاء الأفق البعيد في البحر، والحفيدة (ماولي) تَرقُب كل ذلك عن بُعد.

2007-4-14

سبها – ليبيا

● ● ● ●



ظَمَـــأ

في إحدى القُرى المتاخمة للصحراء، كأن الحياة تلفظ أنفاسها الأخيرة، شوارع القرية خالية، أشجار النخيل يابسة وجذوعها المتساقطة سدَّتْ طرقها البائسة، الهياكل العظمية للحيوانات الهالكة التي غطَّتها رمال الصحراء متناثرة هنا وهناك. ارتفاع درجات الحرارة جعل الجوَّ جافًا، كأنه لفحات تنور القيامة، ولا شيء غير السراب في الأفق.

يُسمع في أحد المنازل صراخٌ لمولودٍ جديد، طفلة أقبلتْ على الدنيا بوجهٍ شاحبٍ كوجه والدتها، منحها والداها من الأسماء (ظَمَــأ) كأنهما أرادا بهذا الاسم إعلان رضوخهما لنواميس الطبيعة، التي كَالَتْهُم بمكيالين.

صُراخ (ظَمَــأ) يتردد في أرجاء القرية، أُمها تُبادلها ثدييها الجافين لتُجنبها مصير من سبقها من أبناء القرية ذكورًا وإناثًا، لكن دون جدوى.

أخذ (أبو ظَمَــأ) ابنته وضمَّها إليه، لعله يفلح في إيقاف صُراخها قبل أن تُسكته حفرة الوأد، التي ينتظره بقربها عددٌ قليلٌ

متبقٍ من سُكَّان القرية. توجَّه إليهم برجلين مرتعشتين، وهو في صراع مع نفسه ومع أُمِّ ظَمَـــأ، التي أمسكت بأسماله البالية تستجديه في حُرقة، استجمعتْ كل مفردات اللغة لعلها تفلح أن تُثنيه عن عزمه. دفعها عنه بشدة وهو يردِّد: أنتِ تعلمين أنني لستُ قاتلَ ابنتي، أنتِ تعلمين من هم القَتَلَة، إن ما قاموا به من جريمة وتَعدٍّ نحصده اليوم، ما أدفنها إلا لأمنحها موتًا أكثر راحة.

استغاثتْ بصرخاتها المتكسرة، تستجدي حياة ابنتها من تلك الأشباح المتهالكة قُرب الحفرة، لعلهم يتشفعون لها عند (أبي ظَمَـــأ)، وهي جاهلة أو متجاهلة ما سنَّه أهل القريةِ من عُرفٍ جديد.

تثاقلت خطوات (أبي ظَمَـــأ)، ثُمَ توقف وقد استثارته دوامات الهواء الكثيرة التي تُثير الأتربة في الجو، كأن الأرض والسماء اجتمعتا على قول شيءٍ ما.

2005-6-12

سبها – ليبيا

● ● ● ●

الجاكيت

خلع الجاكيت على عَجَلٍ ليرمي به جانبًا، توارى يومًا أو بعض يومٍ؛ ليعود وهو يلبس الجاكيت الجديد، ويعتلي المنصة وسط التصفيق والاشمئزاز.

2011-7-8

طرابلس – ليبيا

● ● ● ●



سجين القمقم

أفاق ذاك الصباح وأمواج ذاكرته تجترُّ تفاصيل لقاء الأمس، رآها فجاءةً؛ تلاشت الكلمات من فَمِّه، تزاحُم الأفكار كسَّر كل مجاديفه، نطق بكلماتٍ لا معنى لها، وفي نفسه تساؤلٌ وحيرةٌ عن طول غيابها !.

استجمع شيئًا من شجاعته، محاولاً طرد حيرته بسؤالٍ لا يخلو من غباء أو ارتباك:

- لقد تردَّدتُ كثيرًا على مكتبكم ولم أجدكِ،لعل سبب غيابك خيرٌ؟

ردَّتْ هي الأخرى بإجابة لا تخلو من غباءٍ أو ارتباك :

- هي إجازة اعتيادية.

حاول أن يُلملم شتات نفسه بسؤالٍ أكثر وضوحًا، لكن خاف أن تفضحه ملامحه ولسانه المتلعثم فأنهى زيارته.

خرج وكأنه قسم نفسه نصفين، نصفًا على ذاك الكرسي يتأمل محبوبته، والنصف الآخر ذهب معه، ليعيشا معًا صراعًا لعله ينتهي بعد حين.

احتسى فنجان قهوة الصباح، وهو يخاطب طيفها بمائة سؤال وسؤال، دون البحث عن إجابة !!، زاد فنجانًا آخر على غير عادته، لعله يُبدِّد ما يحسُّ به من إحباطٍ وفتور.

طرق الباب ويحدوه الأمل أن يجدها وحيدة، فكان ما أراد، لكن عاش حالته بالأمس !!، كلماته التي ردَّدها حتى داهمه النوم، وصحا وهو يردِّدها قد تلاشت، عاش صراعًا ليستجمعها وينطق بها كما تمرَّن على ذلك طوال أمسه، لكن دون جدوى.

حاول مرة ثانية، وجد كلماته تذوب في عينيه لتخرج شعاعًا يملأ المكان، أحسَّ بعدها أن الكلام من طرفه لم يعد يعني الكثير.

تململ في جلسته باحثًا عن أي مخرج، يكسر به جمود الصمت، لكن أراحته من كل ذلك وبادرته:

- هل لي بسؤال ؟.

ردَّ ونور الأمل يرقص في عينيه، ربما تمكن بسؤالها أن يبوح بما استعصى عليه قبل:

- تفضلي على الرحب والسعة.

تأملتْ أن يحثه سؤالها على المبادرة، ويضفي شيئا من الدفْء على حوارهما، فقالت:

- إني ألمس منك اهتمامًا لم ألحظه من قبل ؟.

أجابها كمن ينيخ راحلته بعد طول سفر، والثقة تملأ نفسه أن إجابته ستكون نهاية البداية في علاقتهما:

- يقولون: إن العين نافذة القلب، انظري إلى عيني تجدين إجابة سؤالك !!.

أطلقتْ شراعها في عينيه كالرُبَّان الذي يقرأ من الأفق المجهول مرفأ الأمان، رأت حصناً داخل حصن، حُبس بداخله ماردٌ في قمقم من نحاس، يستجدي أن تفكَّ أَسْره من سجنٍ لم تلح بوادر نهايته.

أَغمضتْ عينيها وارتعشت، كأنها تصحو من غيبوبة. بادرها سائلاً:

- ما بكِ؟، ما الذي دهاكِ؟

نظرَتْ إليه في صمت، إن منظر ذلك المارد السجين سيطر على كيانها، أطرقتْ برأسها واستغرقتْ في تفكير عميق.

2006-5-11

سبها – ليبيا

● ● ● ●



أبو رغـال

في رُكْنٍ قصيٍّ من الأرض، وسط الأدغال الأفريقية، عند سهول الهضبة الأثيوبية الشمالية، قُرْبَ الحدِّ الفاصل بين أريتريا والسودان والحبشة.. تتشابك الغيوم وتبرق وتُرعد في السماء، وتتشابك وتبرق وتُرعد المدافع والقنابل على الأرض، الجيش الحبشي والأريتري في ملحمة جديدة من التناحر الدائر بينهما، الموت رفيقهما، يتخطَّف أرواح من شارك في القتال ومن لم يشارك، وسُكَّان القُرى في حالة فزع يهيمون على وجوههم.

في أطراف هذا الخضم تقاطر بعضٌ من صُنَّاع الحياة، يكافحون لبعث الحياة هنا وهناك، في السماء يتكرَّر نداء قائد طائرة الهليوكوبتر في إلحاح، إلى السيد (علي إدريس)، الذي يزيد في إلحاحه وضغطه على دواسة البنزين، السيارة تجاهد وسط المستنقع الطيني، كأنها تعي ما يقوله قائد الهليوكوبتر، وما يبغى علي أن يصل إليه.

العَرَقُ يتصبَّب من (علي إدريس) بقدر المطر المنهمر من السماء، أغلب الطُرق تحولت إلى مستنقعات يستحيل عبورها، صاروا أقرب ما يكون لخط التماس بين الجيشين، قائد

الهليوكوبتر يكاد يجهش بالبكاء، إنه يرى إصرار (علي) وإصرار سيارته، وسط دوي القذائف ومستنقعات الأدغال والمسالك الملتوية، لإنقاذ إنسانٍ لا علاقة لهم به، إلا كونه إنسان.

- قائد الطائرة: إن ذاك الساجد أطال في سجوده، تداركه يا علي، أظنه لا يصلي، بل أطال الدعاء ساجدًا تضرعًا لله.

علي مازال في جِدِّه وحزمه يكرِّر في كل مرة : نعم نعم.. تمام تمام.

قائد الطائرة صار كالفراشة التي تدور على ضوء الشمعة، قلبه مع ذاك المبتهل الساجد، وعينه على (علي) وسيارته، يطير بينهما وأمله في نجاه الاثنين معًا.

زاد صراع (علي) وسيارته مع المرتفع، الذي تشبعت تربته بماء المطر، والأذكار لا تفارق لسانه كما عادته، لا يقطعها إلا استخدام جهاز الراديو، مستفسرًا أو مُجيبًا على قائد الطائرة، أو رئيس مخيم اللاجئين.

- قائد الطائرة: انتصرنا يا علي، بعد شجرة اللالوب الكبيرة، انعطف يمينًا ستجد الشخص بجوار شجرة الصُّـــنط .

تبين أن هدفهم المنشود كانت امرأة أحكمتْ ربط رضيعها على ظهرها... خاطبها علي؛ فلم تُجبه، أقترب أكثر، وهي كما هي في سجدتها.

عرف (علي إدريس) أنها فارقت الحياة قريبًا، فغصن السدر الذي في يد الرضيع ما زال غضًا وطريًا، أدرك (علي) أن من أطالت في السجود تجاه الكعبة، تحمل صليبًا في عنقها، فيا ترى هل أوقعها التعب في هذا الاتجاه ؟، أم أن فطرتها كانت دليلها ؟، أو أن سجيتها التي عاشت عليها؛ هي الدفة التي وجهتها في لحظات النزع الأخير ؟.

عاد علي أدراجه بعد أن وارى بمعوله أخر صفحة في حياة الأم، ومعه الرضيع الذي بدأ لون حياته يتغير، بعد اليُتم في معسكر اللاجئين، ضمه أحد أقاربه لعائلته، وساقته الأقدار معهم إلى أستراليا.

في المخيم، عرف السيد (علي إدريس) أن جيش الأحباش وقع في كمينٍ أبادهم عن أخرهم، ولم تنجَ إلا الضابطة "لملم".. أحد أبناء القرى القريبة تطوع لكشف عورة أهله، فكان دليل الأحباش إلى أقصر الطرق، ليلتف جيشهم خلف الجبال عبر هذا السهل، لكن قضاء الله رصدهم، وصاروا كجيش أبرهة الأشرم في عام الفيل.

سألتُ صديقي عن مصير ذاك الدليل الخائن، الذي تقدم جيش الأحباش مزهوًا بما يفعل !!، أجاب علي: وُجِد مقتولاً وقد فقد بعض أطرافه، ودُفِن في طرف الوادي، وأطلقوا على قبره وكذلك الوادي اسم: أبو رغال.

سألته: أتعلم مدلول هذه الكلمة؟

تبسم السيد علي وقال: لا أعلم، لعل لها علاقة بالمكان !.

أجبته: إن أبو رغال هو من جعلت العرب من قبره رمزًا للشيطان، ورجموه أيام الحج قبل الإسلام، ورجمه الرسول **r** بعد الإسلام.

ظهرت على وجهه ملامح التعجب !!

أسترسلتُ قائلاً: ألم تعلم أنه العربي الوحيد الذي خان أهله، ورضي أن يكون دليل ملك الحبشة لهدم الكعبة، فناله حجرٌ من سجيل.

تملكني العجب والدهشة، فما أشبه اليوم بالبارحة، فعلى الرغم من موت أبي رغال، ما زال أكثر من أبي رغال يعيش بيننا، غير أننا صرنا نضع أكاليل الغار فوق رؤوسهم.

2012-11-18

الخرطوم – السودان

● ● ● ●

حُكم قاراقوش

قصيرة حياة قاراقوش في ليبيا، حطَّ رحاله غرب مدينة طرابلس الغرب، فسُميت بلدة "قرقارش" نسبةً له.. حكم بين الناس بغرائب الأحكام، فقالوا: حُكم قاراقوش.. في ليلته الأخيرة ببلدة "ودَّان" قال قولته الشهيرة: (يأخذوننا إلى حيث أخذنا آباءهم) مُجيبًا على تساؤل ابنه، وهما يُقتادان خارج المدينة ليُعدما.

2011-08-19

طرابلس – ليبيا

● ● ● ●



يوميات مواطن

كعادتي أيقظني جرس المنبِّه، ضغطتُ مفتاح النور؛ وإذا الكهرباء مقطوعة، ذكرتُ الله ثم استغفرته، واستعذتُ بالله من الشيطان الرجيم.. دخلتُ الحمام، فخاطبني صنبور الماء بصفيره، لتبدأ جلبتي المعتادة مع جالون الماء، الذي أحفظ له كثيرًا من الجميل والعِرفان.

خرجتُ من منزلي المتواضع جدًا، إنه يوحي أننا نعيش عهدًا ما قبل خطاب السماء للأرض، عقلي المُجهد يواصل في إعياء تعامله مع المحيط الذي وجدتُ مرغمًا للعيش فيه.

صرخات أطفالي الفرحين - كمن فُك عقاله - تشدني لواقع لا أملك من تغييره شيئًا، اليوم لهم السبق في سرد ما سيشاهدون من زحام وطرائف؛ مصاحبة للحصول على الماء.

ركبتُ وإياهم السيارة، التي أبتْ أن تنهي عصيانها وإضرابها الدائم، أملاً في الحصول على تقاعد ترى أنها تستحقه... قبل أن أُدير المفتاح، قرأت أذكاري اليومية كأنها طلاسم ستجعل المحرك يدور طوعًا أو كرهًا.

الطريق مكتظة بالسيارات كالعادة. أحدهم يقول: صِدَامُ بين سيارتين، الأُولى نزلت الحفرة وارتدَّتْ على التي تليها، نزل السائقان وتبادلا الشتائم ثم اشتبكا بالأيادي. فُض النزاع بالسرعة التي بدأ بها... بدأت السيارات على التوالي تسقط في الحفرة، لتخوض معركتها وتخرج بأقل الخسائر.

لم يتجاوز حصولي على الماء الساعة الواحدة، قصدتُ ساحة المدينة في فسحة قصيرة وَعَدتُ بها أطفالي، وجدتُها مكتظة بسيارات يقودها شُبَّان كأنهم من كوكب آخر، إنها في حالة هياج وعراك دائر بين محركاتها وعجلاتها المطاطية، رائحة العجلات تملأ المكان وتعلن الاستسلام، لم تحتمل هول ما ينزل بها من قوة المحركات، ولا قسوة الأرضية الصماء التي لا تسمع أنينها حيناً وصراخها أحيانًا أخرى.

قرَّرتُ من فوري البدء من جديد في رحلة البحث عن أسطوانة الغاز، قرقعتها في مؤخرة السيارة منذ أيام تذكرني بِقلَّةِ حيلتي، الفشلُ في الحصول على أسطوانة أخرى كمخزون إستراتيجي، جعلني بارعًا في ممارسة فنون الاستعارة من الأقارب والجيران في حال فراغها.

طُفتُ المدينة متجولاً بين مستودعات الغاز، توحدت إجابة العاملين بها: الأسطوانات المتوفرة ليست ممتلئة وليست فارغة

(نص نص، أنت وحظك) في عيونهم مكرٌ مستفزٌ ليقينهم باستسلام الزبون أخيرًا. لم ولن أرضخ كما في الأيام الماضية، أملاً في الحصول على وضع أفضل في الغد.

مؤشِّر الوَقود (البنزين) يُلحُّ عليَّ للبحث عن الوَقود، محطة الوَقود مقفلة بسبب تفريغ كميات جديدة من الوَقود، هذا سبب مقنع لإقفال المحطة، قررَّتُ ببداهة الاتجاه إلى محطة أخرى، وكان المشهد نفسه ولسبب آخر !!، تكرَّر ذات المشهد في كل المحطات لأسباب أخرى، أجّلتُ تعبئة الوَقود لهذه الأسباب غير المتوقعة.

الطابور الطويل أمام المخابز جعلني أتنازل عن الخبز، مستسلمًا لشعور عارم بالإحباط صاحبه أحساس بالدوَار والغثيان.

قفلتُ راجعًا للبيت خاليَ الوفاض، من أسطوانة الغاز والفسحة والبنزين والخبز.

2005-7-3

سبها – ليبيا

• • • •



الإمبريالي

في أخر عقد الثمانينيات من القرن المنصرم، كُنا كالفسيفساء التي جَمَعَتْ مختلف الألوان والأطياف، طلبة من ليبيا ومصر، وفلسطين وسوريا وتونس، والسودان وأرتيريا، وغيرها من البلاد، جمعتنا جامعة سبها في الجنوب الليبي، في الحديث والنقاش تفوح أسباب اختلاف المعاناة، التي يئنُّ من ثقلها الجميع، كانت لنا اجتهادات ومقولات كما عباقرة الفلاسفة، لمع نجم بعض الجهابذة، منهم صديق من السودان يُدعي يوسف، اشتهر باسم "الإمبريالي"، فقِراءته للأمور جريئة وحاسمة، لا يقبل فيها التفاوض والمهادنة.

تفرقنا بإتمام الدراسة الجامعية، جَرَت علينا سُنَّة الأيام في دورتها، اتسعت خُطاي وتنوعت رحلاتي، حطَّ بي الرحال في بلاد السودان، وكانت لي فيها وَقَعَات، عركتني الأيام وشدَّت وطأتها عليَّ في دواوين الإدارة هنا، كاد كلكلها أن يدقَّ عظام عزمي وإرادتي، فتراني حيناً أمشي مُكِبًّا على وجهي، وأحياناً يزيغ مني البصر حتى لا أرى وأنا مُبصر، وحيناً أخر ينفلت لساني وأقول ما أعي وما لا أعي، وكثيرًا ما خُتم على فمي، فلا أفوه ببنت شفه من هول ما يَلُمَ بي.

الشوق للأحفاد دفع والدتي لزيارتنا، سَعدتُ وأولادي أيمَّا سعادة، شمَّرتُ عن ساعدي ورفعت رايات الوغى، قصدت دائرة شئون الأجانب، لإصدار دعوة زيارة لأمي، دارت رحى المعاملة الإدارية الضروس، وأنا أشد همتي كل يوم دون كلل أو ملل، لم يُحبط همتي كثرة الكر والفر، فتارة أرفع رايات النصر هُنيهة، ومرات أجرجر ذيول الهزيمة أيامًا، بلغت المعمعة يومها التاسع عشر، فاضت روحي وبلغت الحلقوم، وبلغ قلبي الحنجرة، عندها أيقنت أنه أُحِيطَ بي، ولا مفر من الاستسلام... أقفلت أهيم في الطرقات، أتلمس الطريق إلى البيت، وأنا كالمغشي عليه، أو كمن يستحضر صور الماضي ساعة نزع الروح حينها تراءَ لي يوسف الإمبريالي، وهو يُنَظِّر علينا ذات يوم ويقول: إن مشكلة بلادي ليست الفقر ولا الجهل ولا المرض، ولا غيرها من عراقيل التقدم والتنمية، وقبض يده اليمنى ونفخ عليها، وهوى بها على كفه اليُسرى، كأنه يَختم على ورقة أو مستند، وهو يقول: مشكلتي بلادي البيروقراطية.

رحمك الله يا يوسف الإمبريالي أينما كنت، كم كنت فيلسوفًا بارعًا، فها أنا اليوم بعد رُبع قرن بلغت إحساسك وعمق معاناتك، وأنا أترنح أمام البيروقراطية، ملوِّحًا بالراية البيضاء، ومعلنًا انسحابي من دعوة زيارة أمي.

2013-11-15

الخرطوم – السودان

الدبُّ النائم

هناك في المنطقة المتجمدة، ينام الدبُّ في سُباتٍ عميق، كأنَّ البيئة اكتسبتْ منه خمولها واستقرارها، أو هو اكتسب منها ذلك، منذ زمنٍ بعيدٍ وهما يعيشان في ودٍّ وتناغم، هي راضية أن يكون سيدًا لها، وهو راضٍ أن تكون مجاله، دون خيارٍ لكليهما.

دامت هذه الحال حينًا من الزمن، لا يتحرك الدبُّ إلا لينقلب يمينًا أو يسارًا، كأن سُباته لا نهاية له، زأرتْ في مجاله كل وحوش الأرض، داسته بأقدامها، لكنه لم يُحرِّك ساكنًا.

ظنَّ بعضهم أنه ميت، لكن كل الحقائق تُشير أنه ما زال حيًا، القلب ينبض، والدماغ يبعث بالإشارات لكل الأعضاء، لتمارس وظائفها في أدنى مستوٍ لها.

ذات صباح، أعلن العلماء أن حرارة الأرض ستزيد بضع درجات، تهللت وجوه المهتمين بحياة الدب، ابتهجوا لأنه سيصحو من سباته.

صحَّ ما تُنبِئَ به، لكن الدبَّ لم يصْحُ، رُغم الحرارة التي تركزت على بعض أطرافه، وسبَّبت له قروحًا ظاهرة للعيان.

حدث جدلٌ حول تقرير مصير الدب، أتُعلن وفاته أم لا ؟.

ظلَّ المتفائلون على رأيهم، يأملون أن تداعب حرارة الأرض المتزايدة، أماكن أكثر حساسية في جسده.

2005-5-8

طرابلس – ليبيا

● ● ● ●

الســـد

انطلقت القافلة السياحية تحمل فوجًا جديدًا مِنْ مَنْ تلهفتْ أنفسهم أن ينهلوا العلم من عين اليقين، فما سمعوه عن هذا البلد لم يُرضِ شغفهم، فليس الخبر كالعيان.

اشرأبت أعناقهم، وأرهفوا السمع لدليلهم السياحي، وهو يصف لهم هذه الحضارة ذات الجنتين عن يمين وشمال، لم تكن على مجرى أحد الأنهار، لكن خلَّدها التاريخ بإعجاز اختصت به نفسها، فكانت آية للأولين وأعجوبةً للآخرين... أشار إلى بقيةٍ من أطلال وأكوام من حَجر قائلاً: هنا كان السدُّ العظيم، ما ترونه متناثرًا في الوادي، هو ما تبقى من أساسه كتذكار أو ذكرى للعالمين... ثم أردف قائلاً: لقد سخَّر الله لهذه البلاد، فتية يحملون نفوسًا ذات هِمَّة عالية، كرَّسوا حياتهم لخدمتها، وهَبُوها خلاصة عقولهم، وقوة سواعدهم، ليخوضوا مع البيئة صراعًا مريرًا، تتوج ببناء هذا السد، فاستحقت بلادهم اسم "البلد السعيد".

مضى وهم برفقته إلى نقوشٍ عاندت الزمن، كشاهدِ على ما حدث، أشار إلى إحداها وقال: هذه اللوحة الحجرية، تروي بعض تفاصيل الكارثة.

تقول الحكاية: إن كبير القيمين على السد، هرع يومًا إلى القصر يرتعد رعبًا مما رأى، استقبله الملك ظنًا منه أنه سيبَّشره بعامٍ وافرٍ بالخيرات، دعاه أن يقترب منه أكثر بعد ما رأى وجهه مكفهرًا وينبئ عن خبر جلل.

تقدم كبير القيمين والحيرة تملأه، أيُهوِّن من الخبر أم يُهوِّله ؟، لكن خاف العاقبة، استقرَّ رأيه أن ينقل ما شاهد دون زيادة أو نقصان، بدأ حديثه متلعثمًا: شاهدتُ يا مولاي؛ وكل القيمين على السد، عددًا من الجُرذان الصغيرة تحاول أن تُحدِث شقوقًا فيه، لتتخذها مساكن لها، قاومناها واختفت فترة وجيزة، إلا أنها عادت هذه المرة بأعدادٍ أكثر، عندما نُبعدها نهارًا نُفاجأ بأنها حفرت مساكنها ليلاً، عجزت حِيَلُنا عن مقاومتها لقلة إمكانياتنا، فأشِرْ علينا يا مولاي ماذا نفعل ؟.

انفجر الملك غضبًا، وقال: ماذا تظنني يا أبله .. ؟، هل أخلع تاجي وأترك عرشي، لأقود جيشي في محاربة جرذان تبحث لها عن مأوى ؟... زاد انفعال الملك وقال مُحتدًّا : اخرج فلا أراك بعد الليلة في مدينتي، وإلا كنتَ عِبرة لمن يعتبر.

ذاع في المدينة ما جرى في القصر، استنكر بعضهم تهويل الأمر من قِبل كبير القيّمين، واستنكر بعضهم الآخر الاستهانة بالأمر من قِبل الملك.

مرَّ زمنٌ غير طويل، جاء كبير القيّمين الجديد للقصر خفية، تضرَّع للوزير أن ينقل ذات الخبر القديم إلى الملك.

عاش الوزير صراعًا مريرًا مع نفسه تارة، ومع أعوانه تارةً أُخرى، أخيرًا سلَّم أمره للسماء، وقرَّر أن يخاطب الملك.

بدأ حديثه بالإطراء على أُسْرة الملك، ومناقب أجداده ومآثرهم الخالدة خلود السد العظيم، ثم سكت برهة، وقال : مولاي، إني أرى السد العظيم مفخرةَ أجدادك يحتضر أمام الجرذان، التي ظهرت فيه وحوله، فقد تضخم حجمها وزاد عددها، حتى عاثت فسادًا في حقول المدينة، قد شاهدها الناس وهي تغطس لتبني مساكنها في حائط السد المقابل للماء، إنها تعيش في الماء كما في اليابسة، والله ما أراها إلا ستهدم السد يومًا، فإن النار تبدأ من صغير الشرر يا مولاي.

تململ الملك في جلسته، واندفع الدم في وجهه حتى انتفخت أوداجه واحمرت عيناه، وقال: والله لو لم تكن أنت لقطعتُ رأسك، مالي أراكم تهوِّنون من أمر السد العظيم أمام هذه الجرذان الحقيرة، تالله لو تضخمت وصارت فِيَلَةً، لما زحْزحَت حجرًا واحدًا من السد العظيم، ثم أشار بيده قائلاً: انصرِفْ من هنا، لا أراك في مجلسي بعد اليوم يا وزير الشؤم... ثم نظر للحضور وقال: أي شيطان منكم يأتينِي بخبر عن جرذانكم اللعينة، سأعلِّق رأسه على باب المدينة، فحذارِ من غضب الحليم.

تبادل الحاضرون نظرة ذات معنى، واستأذنوا بالخروج فأَذن لهم، ما إن وصلوا إلى السوق، حتى أعلنوا عن بيع ممتلكاتهم وضياعهم بأقل ثمن... تسابق الناس لشرائها، ولم يصبح اليوم التالي إلا وهم يشدون رحالهم.

استغرب الناس رحيل بعض الحاشية وكبار القوم فجاءةً، غير أن حيرتهم لم تدم طويلاً، فها هو منادٍ يطوف بالمدينة ليلاً، كأنه طائف من السماء، يردِّد: أيها الناس، ظهرت لجرذان السد مخالب تكاد تُذيب حجارته، فعليكم بأنفسكم قبل أن يعمَّ الطوفان.

لم تمضِ ثلاثٌ حتى صار السد أثرًا بعد عين كما ترون، وصدق ربي حين قال: { **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** } (•)... منذ ذلك اليوم، وهذه الأودية خاوية على عروشها بعد ما كانت نزهة للناظرين.

ثم أقفلتْ القافلة السياحية راجعة، وهي تتسابق مع غروب الشمس أيهما يصل إلى مستقره أولاً ؟.

2005-2-29

سبها – ليبيا

● ● ● ●

(•) سورة الإسراء : آية 16 .

الـواحـة

زاد القيظ، وزادت به معاناة القافلة المُتعَبة، بَلَغَ بهم العطش حدَّه، منذ الأمس لا يتكلمون إلا بالإشارة، عقدوا العزم على بَقْر بطون بعض الجمال(•) هذه الليلة، إن لم تَلُح بارقة أمل حتى الغروب.

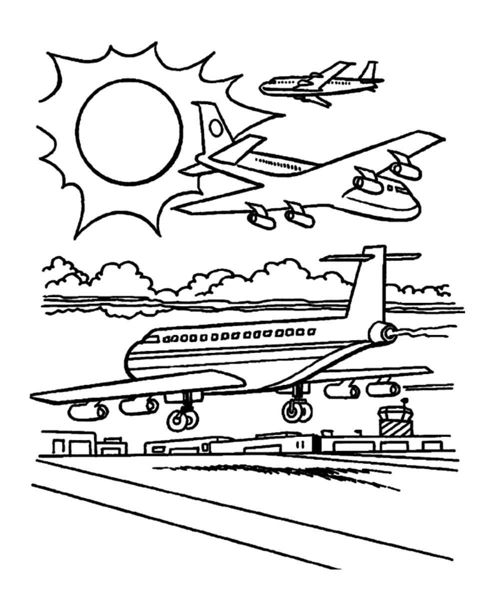
أومأ أحدهم مشيرًا إلى الأفق البعيد، تهللت أساريرهم، وسَرَت الحياة في عروقهم، بدا يَتَرَاءَى لهم شيئًا ما يُبدد السراب، كأنه واحة عن بُعد.

2011-12-21

سبها – ليبيا

● ● ● ●

(•) عندما يشتد العطش بالمسافرين في الصحراء، ولا يجدون مصدر ماء، فأنهم يلجـــؤن لبقر بطون الجمال وشُرب الماء الذي بها.



رحلة رقم (699)

رسم ابتسامة خفيفة على وجهه وهو يودِّع موظف الجوازات، اتجه نحو صالة المغادرة بخُطواتٍ متثاقلة، نظَراتُ أُمِّه ما زالت تخترق كِيانه، وصدى كلماتها يتردَّد في كل أرجائه.

جلس على ذلك الكُرسي المنزوي في الزاوية، جال ببصره في وجوه المسافرين، لعله يقرأ في وجه أحدهم حكاية مِثْل حكايته.

اغرورقت عيناه من صدى زغرودة أُمه وهي تزاحم الفضاء، لتُعلن أنه نال المُنى وفاز بالمُراد، لتشمخ برأسها فخرًا بما صنع.

تزاحمت في ذهنه أحداث كثيرة، توقف عند وجه ذاك السمسار، الذي يُقسم كذبًا أن ما عرضه ثمنًا لأرضه يفوق قيمتها.

تنهَّد بعمق وهو يتحسس مشاعره، هل هو في نوم أم يقظة ؟، تصفّح جواز السفر كأنه يودعه، هذه الرحلة الأخيرة التي سيترافقان فيها.

استعلامات المطار تعلن عن قيام رحلته للمرة الثالثة، ذاكرتُه تجترُّ حواره مع إخوته وأصدقائه، متأملاً كلماتهم التي لم يحس بوطأتها إلا في هذه اللحظات.

نبّهَه أحدهم، أن النداء الأخير للرحلة تكرَّر أكثر من مرة، نظر إليه شاكرًا واتجه إلى الممر المخصص للرحلة، رنَّ هاتفه فلم يعرف رقم المتصل، قرَّر عدم الرد، لكن الهاتف رنَّ من جديد.

مضى يُبدِّل خطواته الحائرة داخل الطائرة، بحثًا عن المقعد المخصص في اضطراب وتوتُّر، من تكرار رنين الهاتف الذي يصرُّ عليه في إلحاحٍ بالرد.

2006-11-3

هون - ليبيا

● ● ● ●

الخُلع

رآها فاشتهاها، قرَّر أن تكون له، حدَّد يوم الزفاف وكانت أخر من يعلم، لا تعرف عنه شيئًا، عمرها الغضُّ لم يسعفها لفهم الكثير، مرَّ كل شيء وكأنه الحلم.

بلغتْ شهد الرشد وأدركتْ بعضًا من حقوقها، أرادت مراجعتها في عقد القران، فقالوا: إن زواجها غير موثق.

توسمتْ في الدنيا خيرًا، بالقدر الذي ضاقت به عليها، قرَّرتْ الذهاب إلى فقيه القرية تستفتيه أمرها، سألته: أتكون العصمة بيدها، ما دام الزواج عرفيًا ؟.

أجابها بسؤال: ماذا تعرفين عن العصمة ؟.

قالت: العصمة هي سلطة حق الانفصال عن الشريك.

تبسَّم الفقيه وقال: عكس كلامك صحيح، فالعصمة تعني التمسك لا الانفصال، لا تجزعي إن لم تكن العصمة بيدك، فلكِ خيار الخُلع، فهو حقكِ للانفصال عن الشريك، سواء كان العقد موثقًا أو غير موثق.

2011-2-23

سبها – ليبيا



الصنم

وسط الجبال المنعزلة عن العمران، تربُض قرية "كوم الحجارة" والإعياء ينهكها، من طول الانتظار والترقب لأي زائر، أهلُها هاجروا إلى غير رجعة، لم يعد يربطهم بها غير ذاك اليوم، الذي شاعت حوله حكايات، اتفقت على أنهم أناس ذوو طقوس عجيبة، يمارسونها غير عابئين بما فيها من شذوذ في المسلك والعقيدة.

كغيري سمعتُ عن "قرية الصنم"، كما يحلو للبعض تسميتها، وفي النفس الكثيرُ من العجب.

ساقني الشغف لحضور ذاك اليوم، الذي يوافق اكتمال القمر، لأن طقوسهم تستمر حتى الليل.

حزمْتُ أمتعتي ويحفني شعور الرحّالة المكتشفين، الذين حققوا سابقةً أضاءوا بها رُكنًا من أركان العالم المجهول، لم أغرق في خيالي كثيرًا؛ حتى توقفتْ السيارة ذات الدفع الرباعي، أطفأ السائق الأضواء، وأخبرني أن الطريق وصل نهايته بالسيارة، ما بقي من الطريق هو دربٌ وعرٌ، ومسالك ملتوية بين شقوق الصخر الضخمة.

مع خيوط الفجر الأُولَى، تهيأتُ للالتحام بالجموع التي ستدخل المتاهة الصخرية، من اثنين وعشرين مدخلاً.

مع سماع دبيب القادمين، غادرْتُ السيارة متتبعًا تلك الخيالات، سِرْتُ خلفهم وهم يصعدون الصخور تارةً، ويقفزون منها تارةً أخرى، لتلتقي كل الدروب أمام ممر ضيق، بدأوا ينسلّون منه الواحد تلو الآخر، جاء دوري ففعلتُ مثلهم، ألزمني من قبلي وبعدي أن أحثَّ السير أُسوةً بهم، حتى انفرج ذلك الممر على ساحة عظيمة، تحفُّها أطلال جدران متهالكة.

جلس الواصلون، وفضَّل بعضهم الوقوف انتظاراً للباقين، عندما لاح أول خيط ذهبي للشمس، تقدَّم أحدَهم وهو يضع عمامة على رأسه، اختلطتْ فيها جميع الألوان، انحنى واغترف التراب بكلتا يديه ليقذفه عاليًا، صرخ بأعلى صوته لتُردِّد الجبالُ صداه، كأنه يُوقظ أرواح أجداده من مرقدها، كرَّر ذلك، حتى وصل كومًا من الحجر وسط الساحة، انحنى راكعًا، ثم انحنى أكثر، وبدأ في تقبيل تلك الأحجار، التفتَ ليغترف التراب مرةً أخرى، ويقذفه عاليًا ثلاث مرات، واندفع الجمع نحوه، لم يبقَ إلا القليل الذين جاءوا مثلي متفرجين.

أخذ كل واحد مكانه، فوقفوا الواحد قبالة الآخر، بدأوا بحديثٍ هادئ، ثم ارتفعت أصواتُهم وازدادت علوًّا، ثم اشتبكوا بالأيدي، وبدأوا يدفع بعضهم بعضًا في محاولة لأن يزحزح أحدهم الآخر.

انتهى العراك بأن وضع الغالبُ رجله على رقبة المغلوب.

بارك ذو العِمامة ما حدث، طلب من المغلوبين أن يقدِّموا فروض الولاء والطاعة، وقف كل واحد أمام غالبه، لينحني أمامه راكعًا، ثم زاد في الانحناء، حتى بلغ الأرض ساجدًا وقبَّل رجله.

خاطب ذو العمامة الجميع، بكلماتٍ فيها غلظة وبذاءة، مشيرًا إلى كوم حجر.. انطلقوا نحوه، بدأوا في بناء صنم كبير، انتهوا منه، واجتمعوا أمامه، وقفوا في خشوع كبير، وذو العمامة في مقدمتهم، نزل على ركبتيه ففعلوا مثله، سجد ففعلوا، وقف وحاور الصنم طويلاً، ثم أخذ حجرًا صغيرًا ورماه على الصنم ففعلوا، ثم تسابقوا على هدم الصنم، حتى ساووه بالأرض.

تساءلتُ في نفسي والدهشة تغمرني: ما تفسير ما يحدث ؟.

ساد الصمت قليلاً، ثم علت صرخة، تلاها عراك اختفى فيه ذو العمامة وسط الجمع.

ما هي إلا برهة حتى خرج رجلان وكلاهما يعتمر عمامة يختلف لونُها عن الأخرى، انقسم الجمع إلى مجموعتين، أَطلق ذوا العمامتين الإشارةَ، لتبدأ كل مجموعة في بناء صنم يخُصُّها، مارسوا ذات الطقوس، واختتموها بهدم الصنمين، دخلوا في عراك جديد، انقسموا على أثره إلى عدد من المجموعات... كرَّروا الطقوس ذاتها واستمروا لآخر الليل، وهم على هذا الحال،

حتى انقسموا إلى اثنين وعشرين فريقًا، يقفون أمام اثنين وعشرين صنمًا.

أحسَّوا أن الفجر سيُدركهم؛ فسَادَ بينهم هرجٌ ومرْج، تدافعوا نحو الممر الوحيد، وقد نسوا أو تناسوا ما كان في ليلهم الطويل.

تبعْتُهم كغيري ونفسي عليهم حسرات، متأملاً أن يُضمدوا جراحهم بخيوط الفجر.

2006-3-12

طرابلس – ليبيا

● ● ● ●

هاجر

جحظتْ عيناها وفغرْت فاها، وصكَّتْ أذنيها وابتلعتْ صرختها، وتقهقرتْ وهي تقول: لن أزيد على ما فعلته لك شيئًا.

اليوم الثالث كاد أن ينصرم، وأنا كثورٍ الطاحون، اسمع جعجعة ولا أرى الطحين، والمعاملة الإدارية الطويلة لم أُنجز منها شيئًا.

المراسلة الأولى لم تتقدم قيد أنملة، بشق الأنفس عبرتْ ثَلاثةٌ من أعتى الموظفين واستعصى عليها الرابع، رجعت بها إلى هاجر مجددًا، لأُصدم من صدمتها حين رأيتُها، وقد جحظتْ عيناها وفغرْت فاها، وصكَّتْ أذنيها وابتلعتْ صرختها، وتقهقرتْ وهي تقول: لن أزيد على ما فعلته لك شيئًا.

2013-10-28

الخرطوم – السودان

● ● ● ●



بئر الحرمان

أشرقتْ الشمسُ ككلِّ يوم، تتسلل خيوطُها الذهبية تلك الخيمةَ البالية.. تثاءبتْ مريم في كسل، ترنو من فتحاتها الكثيرة، علَّها ترقب أحدًا يمر من هنا أو هناك ليكسر وحدتها، التي طالتْ دون أنيس، نهضتْ متثاقلة كأنها تحمل سنين انتظارها على كتفيها، لتبدأ يومها بمشاغلها المعتادة.

أرسلتْ النظر تستكشف ما حولها، لعله يأتي بجديد، لكن لا أمل. نظرت إلى قربة الماء الفارغة، كأنها تلومها في صمت، إنَّ ما يُصاحبها من ألم يجعلها تفضِّل الظمأ على الارتواء أحيانًا.

أخذتْ تجرّ الخُطى نحو البئر، ونفسها تضج بالضيق والضجر، رمت بالدلو فعادت فارغةً.

عادت أدراجها لتقضي ليلتها تصارع لفحات العطش. باتت تغازل ما لذَّ لها من أحلام يقظتها، علَّها تجد فيها من السلوان ما يطفئ لهيب ظمئِها.

بدأت خُطاها في الغد والعزم طريقًا جديدًا، تفاؤلاً بحظٍّ أوفر، كانت وجهتها مشرق الشمس.

ما كادت تقطع ذاك الوادي، الذي أكلته سنون الجدب، حتى انفرجت الأرض بوادٍ رحب. انطلقت نحو ربوة تتوسطه لتستكشف من قمتها ثناياه، على خط الأفق البعيد، تعكس إشاعة الشمس شيئًا ما كاللؤلؤ المنثور. انطلقتْ نحو المجهول الذي خطف بريقه عينيها.

وقفتْ على حافة غدير الماء الرائق، الذي عكس صورتها كالمرآة من صفائه، رأتْ جمالاً ما كانت تراه في نفسها من قبل، جثَتْ على ركبتيها اللتين خانتاها من شدة الفرح.

2011-1-11

سبها – ليبيا

● ● ● ●

الشيـخ

دوى صوت الطبل مُعلنًا النفير(•)، تقاطر الناس واللهفة تسبقهم لمعرفة الخبر، احتشدوا أمام خيمة شيخ القبيلة، وهو محتجبٌ عنهم.

تعالت الصيحات تنادي بِخُروجه، ردَّ عليهم قائلاً: سأخرج عاريًا كما خلقني ربي، وعلى من يريد البقاء في الساحة، أن يتجرَّد من ملابسه.

ساد بينهم الهرج، ثم سَكنتْ الحركة والأصوات، خرج الشيخ فلم يجد أحدًا.

2011-12-24

سبها – ليبيا

● ● ● ●

(•) يستخدم صوت الطبل في إعلان حالة النفير والحرب.



شارع الحرية

زرتُ الخرطوم عاصمة السودان مراتٍ عديدة، في أول زيارة أقمتُ في فندق بشارع الحرية.

هذه المرة لاحظتُ تغييرًا في مسار حركة السير بهذا الشارع، أصبح في اتجاه واحد بدلاً من الاتجاهين، وقد طالت عملية تغيير المسارات شوارع أخرى أيضًا.

أتمشى يومًا وصديقي عمر في شارع الحرية، سألته: لماذا تمَّ تغيير مسار الشارع ؟، ضحك وقال: إن السجَّانة(•) تقع في نهاية الشارع من الجهة الجنوبية، وهذا يعني أن شارع الحرية يقود إلى السجَّانة، وكأن واقع الحال يقول إن نهاية ممارسة الحرية تقود إلى السجَّانة أو السجن.

تبسَّمتُ وقلتُ: لعل بعضهم سيتهكم بعد وقت، ويقول كان شارع الحرية ذا اتجاهين، أي كأن الحرية كانت تُمارَس في أكثر من اتجاه، أحدها يقود إلى السجَّانة؛ أي السجن، أما الآن يجب أن تُمارَس الحرية في اتجاهٍ واحد، كي لا تؤدي إلى السجن.

(•) السجَّانة حيٌّ يؤدي إليه شارع الحرية.

ضحك عمر لهذه الرؤية... واصلتُ الحديث قائلاً: نفرض أن هذا التصور بلغ والي الخرطوم، وأراد أن يُبعد هذا المفهوم عن أذهان الناس، وأغلق الشارع من الاتجاهين، وخصَّصه للمشاة فقط، ما ظنك بالتأويل الذي سيشيع بين الناس ؟.

ضحك عمر حتى القهقهة، وقال: سيقولون إن إغلاق شارع الحرية، يعني مصادرة الحرية.

اشتركنا في ضحكة طويلة، قلتُ بعدها: لو أن والي الخرطوم، أراد أن يخرج من كل هذا، وغيَّر اسم الشارع، أو غيَّر اسم حي السجَّانة، هل سينسى الناس كل هذه التأويلات ؟.

بدت الحيرة على وجه عمر، وقال: لو أن الوالي غيَّر اسم حي السجَّانة، وسمَّاه الحرية، أفضل من تغيير اسم الشارع.

ضحكتُ مجددًا وقلت: كي يقول الناس إن شارع الحرية يؤدي إلى حي الحرية، ويقول المتفائلون: هذا تمهيد ليكون لنا منتدى في حي الحرية، يعبِّر فيه الناس عما يشاءون، كحديقة هايدل بارك اللندنية.

أومأ عمر رأسه بالموافقة.

استرسلتُ قائلا: أظن أن بعض الناس لن تنسَ أن اسم هذا الحي كان يومًا ما السجَّانة، وسيؤولون ذلك بأن الوالي يقصد أن الحرية تعني عنده السجَّانة أي السجن، ومن أراد ممارسة الحرية

سيجعله في سجن ترأسه سجَّانة، إمعانًا في قهر الإرادة وهدر الكرامة.

اختلطت ابتسامة عمر بشيء من الحنق، قال: إذن يغيِّر اسم الشارع، قلت: يا عمر لو غيَّره، هل سينسى الناس أن اسم الشارع كان يومًا ما شارع الحرية ؟، وغيَّره الوالي بقصد أن ينسى الناس معني الحرية ومفهومها في هذا البلد.

ردَّ عمر: أنا مع فكرتي الأولى أن يغيِّر اسم حي السجَّانة، ولن يكون ما تخيلته حول تأويل الاسم والكرامة والإرادة.

قطعنا شارع الجامعة باتجاه شارع الجمهورية، استرسل مستشهدًا باسم جامعة النيلين، ألم يكن اسمها جامعة القاهرة فرع الخرطوم سنينا طوال ؟، لو سألنا بعض الدارسين بها اليوم ربما لم يعلموا بالاسم القديم ؟.

أشرتُ إلى مسجد قريب، وسألته: أتعرف اسم هذا الجامع ؟، قال: مؤكد أعرفه وأعرف قصة بنائه، إنه مسجد فاروق، لقد بناه الملك فاروق أيام كان ملك مصر والسودان.

أجبتُه: إجابتك غير صائبة، أنسيت اسم المسجد ؟، لقد تغيَّر منذ زمن، بعد انفصال مصر عن السودان.

سألتُه بشيءٍ من المكر: هل ذكرتني باسم الشارع؛ الذي يحمل اسم الوزير الجنوبي الراحل ؟.

قال في حماس إنه شارع بيويو كوان.

قلت: هل لاحظتَ معي، أن اسم ذلك البطل الجنوبي مازال راسخًا في أذهان الناس، ويدلُّ على أشهر شوارع عاصمة السودان، رغم انفصال الجنوب، الذي صار دولة مستقلة، كما رسوخ اسم مسجد فاروق رغم الانفصال بين مصر والسودان.

وصلنا الجامعة، وفي نفس كلٍ منا الكثير لدعم موقفه.

ودَّعته على موعد ولقاء... رأيتُ في عينيه إصرار على اصطيادي في موقف آخر.

2012-11-29

الخرطوم – السودان

● ● ● ●

الاختيار الأخير

على الرغم من أنفه؛ جاء من مرقده الأول للدنيا. مع آلام أمه استقبلته زغاريد الفرح... على الرغم من أنفه، عاش ما أراد وما لم يريد، يرى أنه ليس كغيره، فاختار أن يغادر بطريقته... ودَّعته أمه بدمعة وزغرودة، وهو يُزفُّ إلى مرقده الأخير.

2012-10-17

إسطنبول – تركيا

● ● ● ●



تكنولوجيا الحُب

استلقتْ على السرير، ترقُب قرص الشمس الآفل، شعرتْ ببرودة نسمات عَقد الثلاثين تداعب مشاعرها بشيءٍ من الإحباط.

فجأة لمعت في ذهنها فكرة، قرَّرت تنفيذها على عجل، خوفًا من ترددها كما في مراتٍ سابقة، تناولت الهاتف، ضغطتْ على الأزرار كيفما اتفق بيدٍّ مرتعشة، دون تركيز، تَحَدَّت خفقان قلبها المتزايد ونفسها المتسارع، منتظرة الإجابة من الطرف الآخر في شغف ولهفة.

ردَّ صوتٌ رجولي، ملأ صداه أرجاءها المتلهفة لنصفها الآخر، انبهرت حتى زاغت عيناها، تخدَّر كل ما فيها لبرهة !!.. انتبهتْ وهو يُكرِّر: نعم مَن المتكلم ؟ ؟، لتجد كل ما شيَّدتْ من حصون قد تهاوت، مع أول مواجهة... ردَّت بصوتٍ متلعثم: آســـ...ــفـــ...ــة أخـــ...ــطأتُ الـــ... ـــرقم.

أقفل "سُهيل" هاتفه، انهمك مجددًا في تصفح الانترنت، رغم انشغاله بذلك الصوت الأنثوي، الذي أرعد في صحرائه المجدبة، تمنى أن يكون رسالة من السماء، تبشِّر بغيثٍ قريب.

طافت " وداد " الغرفة بخُطوات مرتبكة، كأن صاحب ذاك الصوت يراقب حركاتها وسكناتها، وهي تمسك الهاتف بكلتا يديها وتضمه إلى صدرها، كمن وجد شيئًا عزيزًا ضاع منه، داعبتْها فكرة إعادة الاتصال، شعرتْ بنشوة تسري في أوصالها، توَّجتْها بالضغط على زرِّ الهاتف.

ظهر الرقم مجددًا أمام "سُهيل"، شعر بانفراج في صدره، وهو يخاطب الطرف الآخر: أهلاً.. مرحبًا بكِ، أظنكِ غير مخطئة هذه المرة، سأكون صريحًا وآملُ منكِ ذلك، أنا أعزب، عمري تسعة وثلاثون عامًا، أسمر البشرة، طولي متر وسبعون سنتمتر، وزني خمسة وسبعون كيلو جرام، متحصل على مؤهل جامعي، أعمل بوظيفة محترمة، لا أملك سيارة، ولا منزل، بالكاد يقضي راتبي حاجاتي الضرورية، هذا باختصار، فمن أنتِ؟؟!!.

فُوجئتْ "وداد" بصراحته وأُعجبتْ بها، قرَّرتْ أن تكون على مستوى الحدث الذي صنعتْه لنفسها، أجابتْ ونَفَسها يكاد ينقطع مع نهاية كل كلمة، كمن يصَّعد في السماء : أنا فتاة شرقية من عائلة محافظة جدًا، عزباء، بيضاء البَشرة، طولي متر وستون سنتمتر، وزني خمسة وخمسون كيلو جرام، أكملتُ دراستي الجامعية منذ سنوات، أعمل معلمة، لم يسبق لي أن أقمت علاقة عاطفية مع أحد من الجنس الآخر.

تنفسَتِ الصعداء، كأن روحها عادت بعد غياب.

شعر "سُهيل" أنه وإياها سحابتان من مُزن، وجد كلٌّ منهما الأرض التي تستحق أن تعصر نفسها لها، أحسَّ في صوتها لهفة لاستمرار الحديث، كلهفةِ من تاه في الصحراء لجرعة ماء، قرَّر أن لا يفوت الفرصة، طلب بريدها الإلكتروني، لأن لقاءَهُما عبر شبكة الإنترنت، سيُتيح لهما التواصل بشكلٍ أفضل.

أضاءت أيقونةُ الحبيبةُ المجهولة على الشبكة العنكبوتية.. تبادَلا التحية كتابيًا، ثم استعملا لاقط الصوت، تحدَّثا حديثًا ذا شجون، فاض بأحاسيسَ برعتْ في نقلها تلك الآلة - الحاسوب - عبر الأثير.. طلب منها استعمال الكاميرا، فرأى وجهًا مُضيئًا، أضاء في داخله مساحات طبَعها الليلُ بطابعهِ منذ زمن، ورأت في وجهه دفء، أنساها ما سكن فؤادها من برودة، و.... تواعدا على اللقاء.

عاش الحبيبان قصة حُبٍّ جارف، كأن ما مضى من عمر كليهما، رحلة للبحث عن الآخر، كان ما بينهما من تناغمٍ يكاد يكون تطابقًا، لا يُعكِّر صفوه إلا لحظات الصحوةِ لواقع أليم، يستحيل معه لقاؤهما في عشٍّ واحد، فيعودان إلى تلك الآلة الجامدة لتكون أرحم عليهما من أفئدة ذوي الرحم.

2007-8-7

سبها – ليبيا



المسـخ

التقيتُ أحد الأصدقاء عبر شبكة الإنترنت، تجاذبْنا أطراف الحديث حول الكثير، كان صديقي كثير السؤال عن البلد الذي حللتُ به مؤخرًا، اختصرتُ له بعضًا من غريب ما رأيتُ، فيما هو آتٍ من سطور.

رأيت في هذا البلد المألوف والغريب، أُسودًا ونمورًا وكلابًا وخنازير، كما رأيت الصقور والعقبان والببغاوات والخفافيش وغيرها الكثير... إن ما استوقفني واستقرَّ في نفسي وذاكرتي، ذلك المنظر لمخلوق ظننتُ عن بُعد أنه آدميٌّ، عندما اقترب كأنه ما يسمى (بالكانغرو)، يقفز كأن قدميه تطأ الجمر، أو كأن في جوفه نارًا تلظَّى، جعلتْه غير قادرٍ على الاستقرار والتوازن، بمجرد ظهوره نبذه الحاضرون، واستنكروا طلَّته المُنفرة، فهو مصاب بمرض الجرَب والجُذام، وأمراض أخرى لا أعلمها.

اقترب أكثر، وإذا به مع كل خطوة يتحول من مسخ إلى آخر.. هو حرباء بقدرته على الزحف والتسلق وتغيُر ألوانه.. ثم تحوّل قردًا، يسعى لإضحاك الآخرين بتملقه وحركاته.. وتغيَّر فكان كلبًا، مسعورًا يلهث ليملأ الدنيا نُباحًا.. ثم صار ثعلبًا يُظهر

حِنكته ومكره.. وتضخَّم فإذا به حمارٌ ينهق يَستنكر الجميع صوته.. تبدّلت خِلقْته فصار خنزيرًا، يأكل مثل ما يُخرج من فضلات، قميء المظهر، كريه الرائحة، وهو للخنزير أقرب.. تضاءل واستدقَّ، فصار أفعى لها فحيح، تُنذر من يسمعها بسُمٍّ زُعاف.. ازداد في التضاؤل، فصار جُرذًا بعينين لامعتين ولُعاب مليء بجرثومة الطاعون الفتاك.. زاد في الصِغر حتى أصبح دودة لا مكان لها فوق سطح الأرض.. إن هذا المخلوق لم يستقر على كونه دودة، هو في كل حالاته جامعٌ لكل الخبيث الرديء المتدني من الصفات، قميء، مذموم، مكروه، مع صفات الأراذِل من المخلوقات.

أخبرْتُ صديقي، أني لم أتبين الجِبلَّةَ التي يسعى إليها هذا المخلوق، فهو مستمر في تدنيه وانحطاطه، لعله طامحٌ أن يستقر على مسخ أراد الله بخلقه حكمة هو عالمها.

2010-4-29

ملبورن – أستراليا

● ● ● ●

النظرية الجديدة

تحدَّث السيد رامز لصديقه قائلاً: هل توافقني الرأي أن نظرية داورن(•) صائبة؟

أومأ السيد سامي بالإيجاب، وقال: صدقت، فعندما جئنا إلى بلدنا، وجدنا بها بشر كأنهم بشر، ولكنهم يحتاجون لمراحل من التطور، كي يصيروا مثلنا، ولهذا صارت بلادهم لنا.

مرَّ زمن ليس طويلاً، التقى الصديقان، فخاطب السيد رامز صديقه ثانية: أظنك ستوافقني الرأي أن نظرية لومبروزو(••) صائبة أيضًا.

تبسَّم له وأجاب: نعم صائبة جدًا، فالمجرمون هم مجرمون بالفطرة، أما أن نستبدل مفاهيمهم أو نستأصلهم.

(•) تشارلز روبرت داروين(Charles Darwin) صاحب نظرية التطور ومبدأ الانتخاب الطبيعي (1838م)، التي تطرح رؤية جديدة لقصة الخلق و هي أن الإنسان وكذلك الكائنات من أصل واحد ثم تطور كل نوع على حدة.

(•) تشيزَري لومبروزو (Cesare Lombroso) صاحب نظرية تفسير السلوك الإجرامي، حيث يرى أن المجرم إنسان بدائي يتميز بملامح خاصة توفرت فيه عن طريق الوراثة، وأنه مطبوع على الإجرام بالوراثة.

استرسل السيد رامز متسائلاً: وما رأيك بالنظرية الجديدة، التي تقول بوجود أخطاء جيولوجية في هذا العالم؟

أجابه السيد سامي: طبعًا هذا أكيد، ولهذا يجب أن نناضل في العقل البشري كي نصحِّح هذه الأخطاء، فتغير الجيولوجيا يبدأ بتغير العقول.

2012-1-22

براغ – تشيكيا

الغاصُّ بالماء

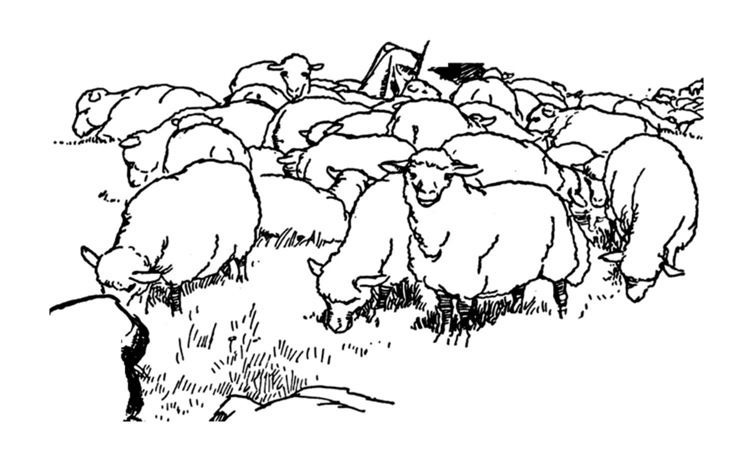
في ليلةٍ حالكة السواد؛ حانتْ ساعة المخاض، جاء الظلُّ الغامض - كما يسميه رفاقه - من جانبٍ مُظلم، قسماتُ وجهه المكفهر أشاعت في النفوس أن الحسمَ مختزل في كلماته المقتضبة لبعضٍ من العسكر، تقدمهم وكسَّر الأقفال، ووزَّع السّلاح، استولى على أعصاب حياة البلد الغارق في الأمان، فكان في قدر الله ما أراد.

دارت عجلة السنين، وأقلام الكُتَّاب وألسنة الشعراء تتزلف، معلنةً عجزها عن وصف محاسن الظلِّ الغامض، ويزداد بهم طابور المتزلفين الفائزين بالرضى.

أفاق الظلُّ الغامض يومًا، ليجد نفسه كالغاصِّ بالماء، الجموع تنسِلُ من كل فج، تبيع الغالي لتشتري الأغلى، وهديرها يهدم أركان المستحيل.

2011-3-15

براغ – تشيكيا



الـراعــي

ذاع صيت "عمَّار"، الذي قصَّ قرون خِرافه، ليحافظ على وداعتها، فصار بذلك قِبْلة كل الرعاة، ينهلون على يديه عِلم حرفتهم.

دار ناموس الحياة، لينقص من "عمَّار" ما يفرضه عُمر الكهولة، يداه مرتعشتان، وخُطاه أقصر، ونظره كذلك.

يُسمع بين الحين والآخر جلبة بين الخِراف، يستولي بعضها على نصيب البعض، دون أن يبالي الراعي بما يحدث، زادت الجَلَبة، توجَّه الراعي للخراف ليخمد هياجها، ملوِّحًا بعصاه الغليظة، فهاجمتْه بعضها وطرحته أرضًا.

أفاق عمار مذهولاً، ليجد أن بعض الخراف هامت على وجهها، وبعضها الآخر انزوى في أحد الأركان، بينما ضلَّت الخِراف المهاجمة معلنة عصيانها، ومتحفزة لمواصلة العِراك.

2011-2-22

سبها – ليبيا



دولـة الأيـام

جلستُ مع فتاة أوربية في أحد مقاهي بروكسل، تجاذبتُ وإياها أطراف الحديث.. تحدَّثتْ عن نفسها وعن طفولتها، بعد انفصال أبويها، وأنها تربَّتْ في كنف رجل أفريقي، كان لأُمها نِعْمَ الزوج، ولها نِعْمَ الأب... منذ الطفولة؛ عَزَمَتْ على الزواج بمهاجر من غير جلدتها، كان ما أرادت، واقترنتْ برجل من سيخ الهند.

قلتُ لها: إن كثيرًا من ظواهر حياتنا اليوم، ترجع جذورها لأكثر من سبعة عقود، إبَّان طغيان الأمم الأوربية على بعضها، في الحربين الأولى والثانية، إن ما خلفته تلك المقتلة العظيمة غَيَّر كل شيء: العادات والأعراف والقيم، وحتى القوانين والدساتير.

استلقيتُ في غرفتي وحيدًا، استحضرتُ ما دار بيننا من نقاش، وفي نفسي إلحاح للغوص في عِبَر التاريخ، ربما وجدتُ وجهًا آخر لتداول الأيام بين المستضعفين في الأرض، ومن طغى عليهم... رأيتُ وجه الشبه أيام مصر القديمة، ودولة العباسيين، نضجت في ذهني خاطرة سطرتها في سطور:

تعنتَّ فرعون واستكبر استكبارًا، فطارد موسى وقومه، حتى كاد أن يُمسك بهم، ويُنزل بهم بطشه، فانقسم البحر كالطود العظيم... زاد عنادًا واندلف يشق قاع البحر الذي انحسر ماؤه، فخرج موسى ومن تبعه، وغُلق اليمٌّ على فرعون وجنده.

صار الخدم في مصر هم السادة، فأورثهم الله بيوت آل فرعون وعساكره بكل ما فيها، حتى النساء والأطفال. فتغير وجه مصر بهم.

أوغر نير العبودية حتى بلغ حدَّه، وضاق العبيد ذرعًا بمعاناتهم، فكانت ثورة الزنج التي قضت مضجع العباسيين.

دانت لهم الأمور أكثر من عِقدٍ ونصف، استباحوا أملاك سادتهم ودُورهم، وما ملكتْ أيمانهم، حتى أن بعضهم استَرَق سيده وجَلَده بالسوط.

مضت دولتهم، لكن ظلَّت بصمتهم يتوارثها الأجيال.

2011-7-27

بروكسل – بلجيكا

● ● ● ●

سيادة القانون

انتهى الجدل بين الأب وابنه، حول تحديد معنى كلمة القانون، وكلاهما متشبثٌ برأيه.

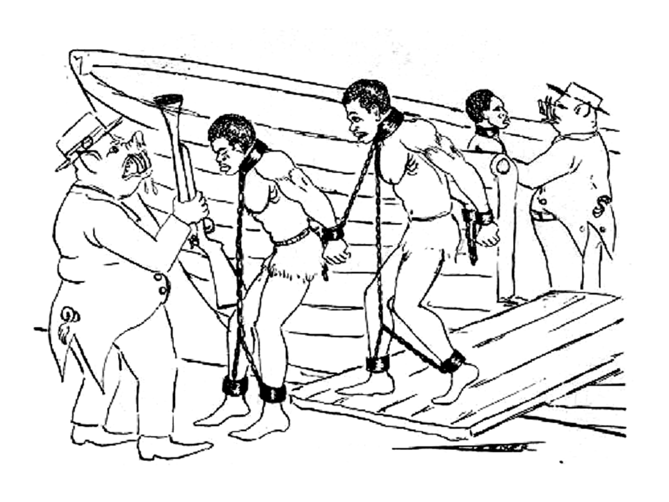
يعتقد الابن أن القانون هو ما تعارف عليه الناس، وكتبوه ليُسيِّر أمور حياتهم وينظِّمها، ويكونوا أمامه كأسنان المشط...

بينما يُصرُّ الأب، أن القانون آلة موسيقية، تُعزف أنغامها كما يريد العازف، ووفقًا لهواه.

2011-9-1

سبها – ليبيا

● ● ● ●



سوق النخاسة

كم هي همجية وقاسية حياة العبودية، مضتْ وانطوى عهدها، لم تَعُدّ إلا في كُتب السير والتاريخ.. رغم مرارة المعاناة، لم يفلح من نادى برفع نير العبودية، واستعباد البشر للبشر؛ في كبح جماح هوى النفس، التي فُكَّ عقالها وصارت فرسًا بجناحين.

تعارفتْ الأمم على صون كرامة الإنسان، وصادقتْ على العهود والمواثيق إنفاذًا لها، لكن عندما يحمى وطيس المال، وأصوات النخاسين، تخبو القيم وتبهتْ، أمام بريق النقود وسلطانها، لتروج سوق النخاسة، وتجارة الرقيق في ألف ثوب وثوب.

- الثوب الأول

بين شقي الرحى، تئنُّ أرواح وأجساد من طاحونة الفقر، لتستسلم طوعًا أو كرهًا، لأبشع أنواع النخاسة، لتُعرض الأجساد للبيع وإشباع الهوى.

- الثوب الثاني

في قلب الغاب، حيث يحكم الناب والمخالب، يتربَّع على عرش الجماجم، حُثالة النخاسين، ليعقدوا مزادهم العلني، كي يبيع الإنسان بعضًا منه، ليعيش بعضه الآخر وهو مقهور الإرادة.

- الثوب الثالث

في جوٍّ من الروحانيات، يتم تفكيك المعتقد وبنائه من جديد، ليستعبد الناس بعضهم باسم الخالق، وتصبح الفتوى جهاز التحكم عن بعد في حركة وتوجيه الجموع.

وتتوالى صناعة الأثواب والوجوه بتوالي الزمان والمكان.

2014-2-24

الخرطوم – السودان

● ● ● ●

تماسيح تاسيلي(•)

ينسبه العلماء إلى عمق التاريخ السحيق، مع الديناصورات والمنقرض من الحيوانات... يعيش تمساح تاسيلي قسوة ظروف الطبيعة، في رُكنٍ قصي من الصحراء الكبرى، إنه يشقُّ الأرض، ليخرج من حالة الكمُون التي تطول أو تقصر...

بعد سنوات الجفاف والجدب، تدبُّ فيه الحياة، ليكون الفائز بما تجود به الأعوام المطيرة.

2011-9-6

سبها – ليبيا

• • • •

(•) تاسيلي: منطقة جبلية تقع في أقصى الجنوب الغربي لليبيا، تتميز ببحيرات تبقى طويلاً، تتجمع نتيجة لمياه الأمطار التي تسقط بعد فترات متقطعة، و تدب فيها الحياة بظهور العديد من الكائنات، كالتماسيح وبعض أنواع الأسماك التي تأقلمت مع الطبيعة، وكيفت نفسها بالعيش في حالة كمون سنوات الجدب والجفاف، الذي قد يدوم لسنوات طويلة.



حوارية النرجس

تنفس حقل النرجس، لتعانق أزهاره خيوط الشمس، وقطرات الندى... في زهوٍ قالت أعلى الأزهار: أنا الفارعة، أنا من أُلْفِتُّ الأنظار، حظِّي من الشمس والهواء، يفوقكنَّ جميعا، أنا الأحسن طلعةً ونظارة.

ردَّت زهرة أخرى: أنا البهية، أنا من أَخْطفُ الأنظار، بتعدد الألوان فأنا الأجمل والأبهى.

ردَّت زهرة من طرف الحقل: أنا الصابرة، أنا من أثير العَجَب بصبري وقوتي، رغم بُعدي عن الماء، أضرب جذوري عميقًا، أنا الأقدر على العيش والحياة.

فردَّت زهرة أخرى: أنا الشهية، أنا الأكثر نفعًا، عبق رحيقي يطغى عليكن جميعًا، ويجذب أسراب النحل لتهب أطيب الشَّهد.

تعالت الأصوات واختلطت، ساد الهرْج بين أزهار النرجس، لتستمر في جدالها الأبدي العقيم دون حسم.

2011-9-10

الشويرف – ليبيا



مشاهد أخيرة

احتسى سقراط الكأس، وراح يُبدّل خُطاه في الغرفة، الغلام يتفطر من الألم مُتوسلاً: سيدي أسألك بكل الآلهة، دعني أُدلِّك قدميك، لينتشر السُمُّ بسرعة، ولا يطول صراعك مع الموت. ليسجِّل التاريخ أنه مات دون رأيه.

نزل بصدره على السيف، وقال قولته الشهيرة: الآن لتستريح روما، عندما خسر حنبعل(•) (هنيبال) معركته مع روما، وأنكرت قرطاجنة كل أمجاده. عزتْ عليه حياة الظل.

عالجتْ كليوباترا اللحظات الأخيرة من حياتها بترياق السم، كونها المرأة الملكة. سجلت ملاحم الأدباء، أزهى أمجادها ومرارة انكسارها.

طاول سيفه تُبَّع اليمن فجنْدَلَه، قالوا: إنه أعز العرب، من أَنَفته لم يلتفت وائل بن ربيعة لقاتله، وهو يتوعده، أرداه قتيلاً في ناقة جرباء. سالت بمقتله الدماء أربعين عامًا.

(•) حنبعل: أو هنيبال، هو قائد من قرطاجنة، سجَّل التاريخ بأنه هو الوحيد الذي هاجم روما، غير أن جيوش الرومان قامت بهجوم معاكس، استهدف مدينة قرطاجنة، التي استسلمت لهم، وأجبرت حنبعل على الرجوع إلى قرطاجنة بجيوشه.

صارع سكرات الموت قائلاً: لا نامت أعين الجبناء، لا نامت أعين الجبناء، لم يبقَ في جسده موضع إلا فيه ضربة بسيف، أو طعنة برمح، لكنه مات على الفراش كالبعير... هكذا وصف خالد بن الوليد نهايته.

طلب الشهادة حتى خاض بحوافر فرسه بحر الظلمات، عند لقاء الموت كسر جفن سيفه، وصلى ركعتين، ليواجه عقبة بن نافع وثمانية وثلاثون من فرسانه، خمسة آلاف من جند كُسيلة(•)، ياااااللهول والرهبة، وسيفه يستل أرواح المسلمين، وكذا بسيوفهم نال حتفه.

مبهرة هذه الوقفات لمن أرّخَ لها، هي المجد، إنها العنفوان والإباء، لكن أليس للحكاية وجه آخر ؟.

إنه شعور الإنسان في لحظته الأخيرة. على الرغم من تباينهم ورباطة جأشهم في المواجهة، التي أُرغموا عليها، تجرعوا كأس الموت بطعم العلقم، لأنهم لم يموتوا لِمَا سعوا إليه.

2011-10-2

جربة – تونس

(•) كسيله: هو ملك الأمازيغ، في عهد حكم عقبة بن نافع لأفريقية، أسلم وحسن أسلامه، ودخل في خلاف مع عقبة، وحشد الأمازيغ لحربه.

راعي الذئاب

أعتقد ُكغيري أن عصر المعجزات قد ولَّى، إلا أن صروفَ هذا الزمان تلِدُّ كل يومٍ عَجَبًا عُجَابًا...

منذ زمن غير بعيد، وُجِدَ آدمي يعيش وسط قطيع من الذئاب، تبنتْه ابنة آوى، أرضعته ثديها وأشركته حليب صغارها، أغدقتْ عليه حنانها، فصار ابنًا لها... وها نحن اليوم نرى حَمَلاً وديعًا، يرعى قطيعًا من الذئاب، وهي تُطأطئ له رؤوسها.

فهل ما رأينا معجزة أم مكر الذئاب ؟.

2011-9-24

براغ – تشيكيا

• • • •



فنجان قهوة

جلسا في ركن منزوٍ من المقهى، بادلته نظراتِ الشوق والحنين، تحدَّثا طويلاً، خانته شجاعته، فلم يبوح بما في نفسه، تململ قليلاً ثم نظر لفنجان القهوة، وقال: فنجانك يضجُّ بألوانٍ من الأحداث السعيدة.

ابتسامتها توحي أنها لم تأخذ ما قاله بجدية.

استرسل في الحديث، وجعل الفنجان مطيِّة لِمَا في نفسه، وقال: أراكِ تقفين حائرة أمام طريق جديد.

تبسمَّتْ وغلبتْ عليها ضحكة خفيفة.

أومأتْ له أن يواصل، قال: في أخر ذلك الطريق يقف شخصًا ما يجلس على كرسي طويل، ويدعوك للجلوس بجانبه.

زادتْ ضحكتها وعَلت قهقهتها. وقالت: آآآآآه لو أن ما تقوله صدقًا، وسبق عقد قراني بفارس غير الذي تراه في الفنجان، لتغيرت أمور كثيرة.

أحسَّ بحرج شديد، أومأ لنادل المقهى، اختلفا على دفع الحساب، ثقافة الشرق حسمتْ الموقف.

أستأذن وغادر.

2012-5-26

سبها – ليبيا

● ● ● ●

الأمازونيات

على الطرف الشمالي لمدينة سبها[1]، جلستُ وصديقي على ضفاف بحر الرمال العظيم، نراقب أفول الشمس، ونحتسي الشاي الأخضر ونجتر الذكريات... ضحك صديقي عندما ذكّرته بحكاية ناقة السلطان[2]، وحكاية بن دلفو[3]، والنهاية المؤلمة لأهل تلك المدينة، رغم ما تحمله من حُزن.

---

1. مدينة سبها : تقع في الجنوب الغربي من ليبيا، وهي أكبر وأهم مدن الجنوب الليبي، ومن أهم حواضر الصحراء الكبرى، وتحدها الكثبان الرملية من جهاتها الثلاث، الجنوبية والغربية والشمالية، وتسمى "رملة زلاف".

2. يُحكى أن أحد سلاطين الجنوب الليبي، الذين اشتهروا بالبطش والظلم، أن له حكاية مع شعبه، وأصل الحكاية : أن الناس قرروا يومًا أن يذهبوا إليه، ليشتكوا ناقته التي أطلقها لترعى في حقول المدينة، وألحقت بها الخراب، فكان أن اجتمعوا أمام القصر، بعد أن وزعوا بينهم جملة تقول (الناقة نريدك أن تربطها)، وعندما أطل عليهم من شرفة القصر، كان أولهم الأشجع وقال الكلمة الأولى (الناقة)، وتخاذل الثاني والثالث عن إتمام الجملة، فقال السلطان: أتريدون جملاً يؤنس الناقة، فلم يرد أحدًا، خوفا من بطشه، فأمر بجمل يرافق الناقة ويؤنسها، فكانت مصيبتهم مضاعفة.

3. بن دلفو : يُحكى أن أحد حكام جنوب ليبيا في الزمن الغابر، وتنسب إليه بعض الحكايات الطريفة ذات المغزى، منها: أنه طلب من الناس يومًا أن يزرعوا الأراضي الخاصة به بالقمح والشعير، لكنهم أرادوا أن يمكروا به، فحصدوا القمح والشعير، وقالوا له: أن الأرض أنتجت بدل القمح والشعير نبات "العاقول - هو نبات شكوكي لا فائدة منه -، فقال لهم بن دلفوا: إذن احصدوه، ففعلوا، وطلب منهم أن يدرسوه بشوكه وهم حفاة. وبهذا كانت عاقبة مكرهم عليهم.

تندّرنا بحكايات الغولة[1]، وما كانت تُحدثُه لنا من رعب وخوف... أرخيت العِنان لخيالي، ونحن نستذكر بطولات ونوادر (أفحيج[2]) وغيره من أبطال تاريخنا البواسل.

بادرني صديقي مُتسائلاً: في ذهني سؤال يتردد منذ الطفولة، حول جزيرة الأمازونيات !!، أحقيقة هي أم خيال ؟.

تزاحُم الأفكار جعلني أقف وأُبدّل الخُطى، لأُبدد الضجيج الذي أحدثه سؤاله في ذهني، بذلت جهدًا لأُلملم شتات نفسي وأجيبه: لقد أطلق الكثير من المؤلفين أشْرعتَهم في هذا الشأن، ولم يرسوا في مرفأ واحد... أرى أنها مملكة ذات شأن في يومٍ ما، إنها لم تكن خالصة من النساء، الأرجح أن صرفًا من صروف الدهر كالحرب مثلاً، جعل عدد الذكور يتناقص جدًا مقابل الإناث، نتج عنه تغير في دور كِلا الجنسين، عندها قرَّرتْ النساء أن يقمنَّ بكل الأدوار، بداية مِن تولي سدة الحكم، والانخراط في العسكر، حتى أقل الأعمال جهدًا وعناء، وإبعاد الرجال عن كل ما يعرض حياتهم للخطر.

1. **الغولة: هو تحريف في اللهجة العامية الليبية، للفظ الغول.**

2. **أفحيج: هو علي أفحيج الرميثي الفرجاني، من مدينة ترهونة، وهو أحد أبطال ليبيا، أبان نضال الليبيين ضد الاحتلال البريطاني، أيام الوصاية البريطانية على ليبيا، بعد الحرب العالمية الثانية، وقد أستشهد هو وابنته، التي كانت تساعده في القتال بعد أن نفذت الذخيرة.**

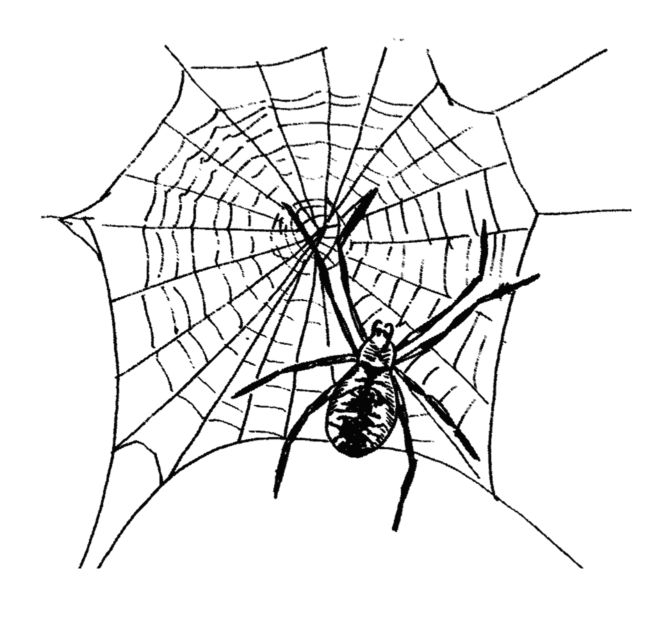
يا صديقي أُرجِّح أن مملكة الأمازونيات حقيقة، أغلب الرأي عندي أنها جزيرة قبرص، تأملْ معي، أليست هي المكان الوحيد الذي تختلف فيه طقوس الزواج ؟، إن المرأة هي من يقدم المهر ويخطب الرجال، حتى صاروا محل تنافس النساء، وإرضاؤهم غايتهن المنشودة.

لم يدم النقاش طويلاً، فبزوغ خيوط القمر الفضّية، في ليالي صيف الصحراء، بعد نهار لاهب، يدغدغ مشاعر النفس، لتسوق دفة الحديث نحو شاعرية يفرضها الزمان والمكان.

2011-9-27

براغ – تشيكيا

● ● ● ●



العنكبوت

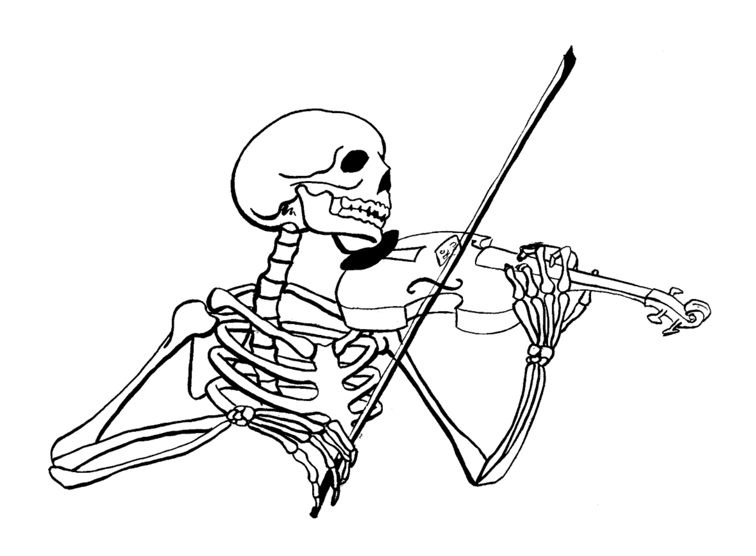
تعجُّ الحياة في الحقل الوادع بإيقاعاتها المختلفة، كل طائفة منشغلة بما هي فيه، النحل يُلثم الزهر، ويداعب قطرات الندى.. والفراش يطير مزهوًا بألوانه البديعة.. جماعات النمل تدبُّ على الأرض، تسعى في رزق الله.. وكذا الجراد والجنادب وغيرها.

في غفلة من الجميع، تسلَّل العنكبوت مع خيوط الظلام، سابق الزمن لينتهي، أكمل بيته ليفرض وجوده قبل طلوع الشمس.

تمدَّدتْ شبكة العنكبوت يومًا بعد يوم، غطَّتْ خيوطه فضاء الحقل، صار التحليق عاليًا مقامرة بالعمر، اختفت أسراب النحل والفراش والمنّ وغيرها، كأن الحقل لا حياة فيه، ضاق ذاك المجال الرحب، لتتحصر حركة الجميع بين الدبيب على الأرض، أو التسلق على الأغصان.. ومن ضاق به الحال؛ هاجر إلى فضاءات أخرى.

2007-11-13

سبها – ليبيا



الـموت البطيء

مؤكد أن نختلف على معنى الموت البطيء، وكيف يكون، لكن أؤمن أن لهذه الحالة صورًا كثيرة ومختلفة.

- الصورة الأولى :

التقى عامر وعلياء، قرَّرا الحياة معًا، عاش عامر حتى أول عمر الكهولة، وغادر حياة علياء، التي بكته كثيرًا، كانت تعلم أن رحلته إلى اللحد كالموت البطيء، استغرق سنوات العمر الذي عاشه معها.

- الصورة الثانية :

التقى صلاح مع مريم، قرَّرا الحياة معًا، لكن المقادير حكمتْ أن تغادر مريم مبكرًا، جعل قبرها حديقة من الورود، كان يزورها دائمًا، ويجدِّد زرع ما ذبل منها.

كان إحساسه دائمًا، أن ما بقي من عمره موت بطيء، ينتهي بموت ورود حديقة مريم.

- الصورة الثالثة :

سافر يوسف إلى بلاد الغرب، بلاد النور والحضارة، كافح كثيرًا لأجل هذا الحلم، كان يأمل في حظٍّ أوفر لأبنائه، لكن سرعان ما تكسَّرتْ مجاديفه، يوم عرف أن ابنته ستنام الليلة مع صديقها... تحوَّل غيظه إلى كمدٍ سكن الفؤاد، عاش بعدها ساعات العمر الثقيلة، في رحلة الموت البطيء، حتى سكن اللحد.

- الصورة الرابعة :

كان خط السنين غائرًا في قسمات وجهه، يبدو أنه أكبر من أقرانه، كأن الدهر قد اختصه بكَلْكَلُه، كان دائم الحديث عن المستقبل المجهول، والأفق المسدود، ينوء بحمل من خلفه، فكل ما يراه يبعث في نفسه شعورًا بالموت البطيء.

وتستمر جدلية اختلاف وجوه وصور الموت البطيء.

2012-8-26

سبها – ليبيا

● ● ● ●

الخط الأسود

عند بلاد مطلع الشمس، حيث أول مكان يُحتفل فيه بأول إشراقة لكل عام جديد، توجد ألف حكاية وحكاية، عن سكان العالم الجديد، وعن عالم الأرض الجديدة، إنها أستراليا البعيدة، التي لم يسكنها بشر قبلهم كما أشاعوا.

منذ أعوام قليلة اعترفتْ حكومة أستراليا أنها لم تكن عالمًا جديدًا، ولم تكن أرض غير مأهولة، واعتذرت عن المظالم التي مارسها المهاجرون الأوائل ضد البرْجُنَال سكان الأرض الأصليين، الذين عانوا كما غيرهم في بقاع شتى من الأرض.

كنتُ تلك الأيام في استراليا، وكان الاعتذار حديث الساعة، في حديثٍ ضمَّ لفيفًا من أجناس مختلفة، من الصين وأمريكا اللاتينية، والهنود والعرب والأوربيين... شاركتنا فتاة أسترالية الحديث، وأسهبت في السرد عن تاريخ أستراليا، كان أغلب الحضور مشدودًا ومندهشًا لما يسمع.

انفضَّ الجمع.. ومن حينها لم يغادر ذهني ذلك الخط الأسود المنحني، الذي حدَّثتنا عنه تلك الفتاة في بضع دقائق، لتختصر معاناة أجيال في سنين.

في ليلة من ليالي شتاء الخرطوم، كنتُ أجلس وبعض الأصدقاء في إحدى الحدائق العامة، استحضرتْ ذاكرتي الخطَّ الأسود الحاضر في الذهن بكل أبعاده، لكن ما أن بدأتُ الحديث حتى علتْ الدهشة وجوههم !!.

أجَلْتُ النظر في عيونهم مؤكِّدًا: نعم اسمه الخط الأسود، ذلك الخط الذي كان يتغير اتجاهه ويغيِّر معه وجه تلك الأرض، حتى عمَّ أغلبها، لعلَّ من أطلق على هذا الخط صفة السواد، أراد أن يُدلِّل على الظُلمة، والظُلمة تعني المجهول، والمجهول هو الموت، أو ربما قصد أن شارة القماش الأسود، وملابس الحداد السوداء ترمز للموت، أي أن الخط الأسود هو خط الموت.

كان المهاجرون البيض ينطلقون وهم يحملون البنادق في خط منحني، على شكل قوس يمتد عشرات الكيلو مترات، ليُمشطوا الأرض كما يمشط المشط الشعر، ترسل فوهات بنادقهم الموت لكل آدمي يصادفهم... صوت البارود كان جديدًا على البرْجُنِال، عرفوا أن دوي صوته يختطف أرواحهم، حتى أن جزيرة تسمانيا خلت من كل ساكِنيها، واندحر البرْجُنِال إلى الصحراء وسط القارة، بعد أن أبيدوا إبادة عظيمة... لقد كان الخط الأسود أو خط الموت فاصلاً وحاسمًا في التاريخ البشري هناك، شأنه في ذلك شأن الخط الأحمر في أماكن أخرى من العالم.

الخط الأحمر يدلُّ على خط التماس بين الجيوش المتأهبة، ربما ليدللوا به عن لون الدم؛ أو عن لون النار الملتهبة، حيث كان يسخن أحيانًا حتى يصبح لهيبًا ونارًا، تأكل الأخضر واليابس، لتسود أمة على أخرى، أو يتغير الخط الفاصل بينهما وفقًا لهوى الغالب.

وبذكر الخط الأسود والأحمر، تداعى في الذاكرة خطٌّ بلون آخر، فسألت: ما الذي تعرفونه عن الخط الأزرق ؟، أجاب بعضهم إجابة مقتضبة فأصل التسمية مرَّ عليه زمن.

قال علي: هو خط الحدود بين لبنان وإسرائيل.

أضاف محمد: هو الخط العازل بين البلدين، وتوجد فيه قوات دولية.

أومأت إلى كليهما بالإيجاب مسترسلاً بالقدر الذي أسعفتني به ذاكرتي: كانت ولادة الخط الأزرق في دهاليز الأمم المتحدة، لقد شاع استعماله في فترة الاعتذار الأسترالي للبْرُجِنَال، فهو شيء جديد، هو اشتقاق من لون علم الأمم المتحدة الأزرق، لم يستخدم قبل هذه المرة، رغم تدخل الأمم المتحدة لفظ النزاع في مناطق عديدة من العالم.

رغم التنهيدات المتكررة التي لم تُفَرِج الضيق الذي أشعر به، واصلت حديثي: إن الخط الأزرق يرمزًا إلى خط انسحاب

إسرائيل من أرض لبنان، إنه رمزٌ لخط الانسحاب، وليس خط حدود بين دولة ودولة... أي أن الحد الإسرائيلي الشمالي هو خط وهمي وهلامي، قد يُفسَّر بعد حين أنه الخط الأزرق الذي يعلو النجمة السداسية في علم إسرائيل، وسينزاح هذا الخط شمالاً بالقدر الذي يرتفع فيه علم إسرائيل عاليًا.

أو ربما عمَّ اللون الأزرق راية إسرائيل، واستبدلت النجمة بخريطة العالم.

عذرًا لكل من يحب الألوان، ويؤمن أن الألوان لغة، لقد اجتمع اللون الأسود والأحمر والأزرق في ذهني بنفس المعنى.

2012-12-5

الخرطوم – السودان

● ● ● ●

وقت الضحى

يتهامس بعضهم: تسابقوا لنيل رضاها، فصدَّتْهم، خيَّبت آمالهم، واستعصتْ عليهم بمهْرها، شاط غضبهم وأعماهم، فأصرُّوا لها مكرًا.

اجتمعوا لينفذوا وعيدهم، شقوا طرقات القرية وقت الضحى، الجميع يعرف وجهتهم، نفير خطواتهم حبس أنفاس القرية.

شقت فضاء القرية صيحات (شَهْد) مستغيثة، إنهم كذئاب ينهشون بمخالبهم لحمها... تكسَّر صوتها وخفتت استغاثتها، وساد الصمت.

2011-10-11

سبها – ليبيا

● ● ● ●



نظـرة

عاش غريبًا وحيدًا، أحسَّ أن السفر علاجٌ لوحدته وعزلته فقرَّر ذلك.

أمضى أعوامًا يتنقل من بلد لآخر، ومن مدينة إلى أخرى، لكن عزلته زادت، ووحدته اشتدَّت.

أحسَّ يومًا أن جدار عزلته بدأ يتصدع، تأمل ما الجديد في حياته !!، ما لبث أن أيقن أن النظرة التي ظنَّ أنها عابرة، بدأت تقرع جدار وحدته وتزداد قوةً، لقد جعلته يظن أنه محور العالم.

2011-7-30

مرسيليا – فرنسا

● ● ● ●

السقوط على أربع

في إحدى الليالي الشتوية، رغم تساقط الثلوج، تجولتُ بصحبة أحد المهاجرين في شوارع مدينة إسطنبول، دار بيننا نقاش طويل وساخن، يرى أحمد أنه قاب قوسين أو أدنى من تحقيق الحلم، فها هو يمشى في الشطر الأوربي من إسطنبول، وما هي إلا أيام ليقطع الغابات والجبال، ليصل وتطأ قدماه أرض الأحلام.

كان دَأَبي معه أن أضع أمامه المخاطر والمحاذير، فيزداد غضبًا، قلت له: ما دمتَ عازمًا فتوكل على الله، لكن الطقس غير مناسب، فالبرد القارص والثلوج قد يؤديان إلى حتفك، زاد به الحَنَقُ حتى كاد أن يطير ماشيًا، فتعثر في مشيته، وترنح مع المنحدر، ثم سقط على الثلج، وصار يتزحلق على الأربع.

2012-1-17

إسطنبول – تركيا

• • • •

سقوط طروادة

في قصرها المنيف تبدّل الخُطى لتبدّد قلقها، ينتابها الخوف بين الهُنيهة والأخرى، قلبها يخفق على تفاصيل مراسيم ليلة الزفاف، لم يسكن روعها حتى جاءها البشير؛ معلنًا وصول موكب العريس الموعود... دخل الملك أذينه البلاط، وقد أيقن أنها أوقعت به، فَلَقىَ حتفه كما ينبغي للملوك، شفت الملكة زنوبيا غليلها وثأرت من قاتل أبيها.

كما رصدت وأنفذت تدبيرها، رصدها الدهر بمن انبرى لها، ليثأر لدم بالدم، شحذ قصير بن سعد اللخمي مَلَكَةَ مكره، وجاءها جادعًا أنفه، وتاجر لها حتى أمنتْ له، ليدخل عليها ذات يوم بألف رأس من الإبل، وما إن جُنَّ الليل؛ حتى خرج المقاتلون من صناديق القافلة، لتسقط تدمر في أيديهم كما سقطت طروادة يومًا.

2012-10-8

القاهرة – مصر



قميص يوسف

ضاقت الأيام واشتدَّت حلقاتها، أيام قلائل وأطوي غُربتي، امتحانات الأبناء كانت العقبة الكئود دون السفر، تمديد الإفراج الجمركي لسيارتي أبى واستعصى، وأزبد وأرعد، المعاملة الجمركية كمن يَصَّعَّدُ إلى السماء، وصارت حجتي كمن يطحن الماء في الطاحون، حتى لاح شبح القضبان والأقفال.. ولا بارقة أمل.

كل غايتي السماح ببقاء السيارة حتى انتهاء امتحانات الأبناء، لكن شقَّ عليهم نفحة من رحمة ينفرج بها كرب الغريب في بلده الثاني، كافأوني بنَصب الشرَك، وفي ظنهم أنني أصم أعمى ممن لا يفقهون.

بملء إرادتي أحضرتُ السيارة، وفقًا للأجل المقرر، سلَّمتُ لهم المفتاح وأوراق الملكية والمستندات الجمركية الخاصة بها، انطلقتْ المعاملة الإدارية من مكتب إلى آخر، حتى انبرى أحدهم وطلب مني التوقيع على ورقة، ظننتُه مستند تسليم السيارة، كعُهدة يحفظونها إلى حين مغادرتي، قرأتُها لأجد نفسي أمام مستند إدانة جنائية من الدرجة الأولى.. التفتُ نحو رفيقي، الذي

انتابته الدهشة لرفضي التوقيع !!، قرأتُ عليه ما كُتب، بعد ذكر اسمي، أنني ضُبطتُ وفي حوزتي السيارة ذات المواصفات كذا وكذا، والتي لا أملك مستندًا يفيد بملكيتها، ويُعدُّ هذا مُخالفًا لقانون الجمارك، الذي تتراوح العقوبة فيه ما بين الغرامات المالية، والسجن الذي يصل الخمس سنوات، ومصادرة السيارة أيضًا.

ياااالهول إحساسي وصدمتي، وأنا بين يدي أخوة يوسف، وقد أزمعوا أمرهم أن يضعوني في الجُبّ، لكن ما أهون جُبّك يا يوسف، لأن موتك أُلقي على كاهل الذئب، أما أنا فَسَيُصَيِّرُونَنيِ قاتلاً لنفسي، ولا قميص سيُرسَل لأهلي.

تمتمتُ بنداء أيوب عليه السلام: ربِ أَنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ.

كنت قد شددتُ قوسي حتى انحنى، ليصل سهمي مبتغاه، وشددتُه أكثر ليعاند الرياح في مساره، وكأني به سفينة نوح التي رستْ على الجودي، حين وصل طاولة الوزير، وقرأ ما نُقش عليه: رَبِ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ، فأدرك بقلبه وعينه ما لم يُحسه مَن هم دونه، فسخَّره الله لينفرج كرب الأيام على غريب بين أشقائه.

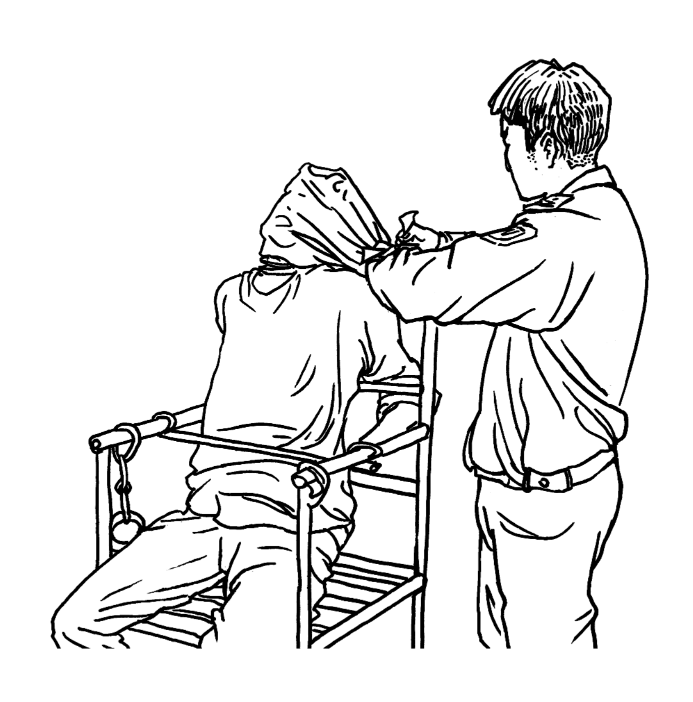
أشتدَّ قرع طبول السجن، وحمى وطيس المعمعة، عيون أخوة يوسف تملأها سكرات الضحك، أوْجَسَت في نَفْسِي خِيفَةً، حينما تخيلت حبالهم حيات تسعى، حينها جاءت تعليمات الوزير، كعصا

موسى لتَلْقَفْ ما صنعوا، وجاء البشير بقميص يوسف... فسبحان من وهبك الاسم والصفة يا وزير المالية، كما يوسف الذي مكَّنه الله من خزائن الأرض.

2014-4-28

الخرطوم – السودان

● ● ● ●



زوَّار الفجر

الأجيال الناشئة لن تعي بعض المعاني التي عرفها الآباء، في ما مضى من الزمن القريب، أيام طغى المدُّ الثوري والقومي عند كثير من الشعوب، تداول الناس مفرداتٍ ذات مدلولٍ ومعنى، تُلخِّص بعض الصور من حياتهم.

قد أختلف مع البعض حول قوة هذا المدلول أو ذاك، من حيث تصوير الزهو والفرح، أو عمق المأساة وشدة المعاناة، لكن أتفق مع الجميع أن كل مرحلة تفرز من الأدبيات ما يخصّها.

في بلدي كما في البلد الأخرى، شاع الكثير من هذه المعاني، إن ما يخطر على بالي دائمًا ويشدُّ تفكيري؛ كلمة، أظنها لا تعني عند أجيالنا الحاضرة مدلولاً أو معنى، وهي "زوَّار الفجر".

ما حدث لصديقي المهندس "علي"، جرى على آلاف غيره، كان مولعًا بالعلم، فلم يقف طموحه عند بكالوريوس الزراعة، لقد وقفتُ على إحدى تجاربه التي تدلُّ على النبوغ والخيال العلمي، كان دائم التذمر رغم روحه المرحة، التي لم تسبح في فضاء الدنيا طويلاً.

في فجر أحد الأيام ودون سابق إنذار، طُرق باب بيت "علي" بقوة، أفزعتْ كل ساكنيه، فلم يسعفهم الوقت لكي يفهموا ما الذي يجرى.

دخل أمه وأبوه وإخوته في صراع مع عفاريت، لم يعرفوا أأنس هم أم جان ؟، ليستفيقوا من حلم كأنه الحقيقة، أو من حقيقة كأنها الحلم، بعضهم جثى على رُكبتيه، والبعض الآخر يصرخ ملء فيه، واسم "علي" يُدوي في ذاك الزقاق، ليطوي زوَّار الفجر حياة "علي" في عالم مجهول.

جمهرة من الجيران تقاطرتْ حولهم، كأنها تؤكِّد لهم أن ما حصل حقيقة، وإن كانت مُرَّة.

مرَّت الأيام والسنون والكل يترقب رجوع "علي"... كنتُ في كل مرة التقي فيها ذلك الرجل المُسِّن، أتردَّد كثيرًا قبل السؤال عن أخبار ولده "علي"، كان يُجيب ككل مرة "لا أخبار ولا معلومات".

غادر والد "علي" ولم يتحصل على أخبار ولا معلومات، كأن شوقه لولده كان أكثر من الجميع.

انحسر المدُّ الثوري والقومي، وانحسرتْ معه خبايا اختفاء "علي"، فأعلنوا وفاته.. أحد إخوته رأى اسمه في قائمة عند موظف الأمن.

هؤلاء هم زوّار الفجر... فيا ترى من يتفق معي أن مدلول كلمتي "زوّار الفجر" لطيف، أمام ما يرمز إليه من هول الرحلة إلى المجهول ؟.

هذه واحدة من نقاط الجدل بيني ومن كنت أثق بهم، عند الخوض في مثل هذا المجال.

2011-5-7

براغ – تشيكيا

● ● ● ●



الضفدع

التقيتُ بصديقين من الأردن سفيان وزيد، وعليًا من السودان، دار الحديث بيننا ثقيلاً، كثقل الأيام التي نعيشها، كأن كُلاً منا ينوء بحمله... أراد "علي" أن يضفي على الحديث شيئًا من الطرافة، استعدل في جلسته، قال؛ وهو يتفحص الوجوه: هل سمعتم بحكاية الضفدع والسمك ؟، أجبنا بالنفي.

استرسل قائلاً: غطس الضفدع يومًا في الماء، ونقنق يدعو السمك للاقتراب، قائلاً: إني أحمل لكم رسالة ونصيحة.

تجمعتْ أسراب السمك حوله، قال لهم: تعلمون أني أعيش في الماء كما في البر، لقد استنتجتُ الكثير من هذه الحياة، اليوم أتيتكم بالخبر اليقين عن شيء لا تعرفونه.

قاطعته سمكة: جاء الزمن الذي صار فيه الضفدع من الحكماء، ويستنتج من الأمور ما لم يعلمه غيره... هزَّتْ بذيلها وانصرفتْ، وتبعها عدد غير قليل.

لم يكترث الضفدع بما سمع، واصل حديثه: أيها السمك لا يغرنَّكم طُعْم الصياد... تعالت أصوات بين السمك يتسألون عن

معنى طُعم الصياد ؟، أجابهم: الطُعم هو الشيء الذي ترونه متدليًا في الماء، له شكل مغرٍ يُرَغِّبْ من يراه في أكله، لكنه ليس كأكلكم الذي تأكلون، وتجدونه سابحًا في الماء، إنه مربوط بخيط رفيع، في أخره قطعة من المعدن، تنغرز في اللحم، يصعب على السمكة أن تتخلص منها.

بدأ بعض السمك يتسرَّب من ذلك الجمع، استخفافًا بالحديث والمتحدِّث، خَفَتَ صوت الضفدع وشعر بالإحباط، لكنه أصرَّ على أن يكمل كلامه: إن محاولة السمكة للتخلص من الجزء المعدني يحدث اهتزازًا في الخيط، يليه اهتزاز في العصا، فينتبه الصياد لاهتزاز العصا في يده، فيسارع إلى جذب العصا، فيخرج الخيط ومعه السمكة المسكينة، التي وقعت في الفخ، ليضعها في قُفْةٍ بجواره، ويرمي بالصنارة مجددًا ليصطاد سمكة أخرى، حتى تمتلئ القُفْة بالسمك، ويذهب ليبيعها لمطعم على الشاطئ... ياااال هول ما رأيته في ذلك المطعم، النار شيء لا تعرفونه، إنها شيء رهيب، يُغلى عليها الزيت، ثم يوضع فيه السمك حتى يستوي لحمه، أو يُشوى على النار مباشرة، لكي يكون أكلة لذيذة.. رأيتُ المنظر بعيني، وأنا لكم من الناصحين، فحذارِ من هذا المصير.

انقسم السمك إلى فريق مصدِّق وأخر مكذب لما سمع، لكن المكذبون ثاروا على الضفدع المسكين، وأرادوا القضاء عليه، لكنه قفز إلى برِّ الأمان، وترك الفريقين بين ثائرٍ وحائر.

ضحك سفيان أستاذ التاريخ، وقال: سأزيدكم على هذه الطرفة طرفة أخرى، عن الفأر والجُبن: فمنذ أن عرف الإنسان الجُبن جعله وسيلة لصيد الفئران منذ آلاف السنين، ولم يستفِد فأرٌ من مصيبة أخيه، نحن أهل التاريخ نستشهد بهذه الحكاية، ونقول إن الإنسان كائن تاريخي، فهو المخلوق الوحيد؛ الذي جعل من تاريخ من سبقه نبراسًا يهتدي به، متجنبًا لأخطائهم، ومعتمدًا على التراكم المعرفي الذي أوصله إلى أعلى درجات التقدم.

قال زيد: إن الحديث أخذ منحى أخر، من الضفدع تحول الحديث إلى الفأر، ثم صرنا إلى الإنسان.

أومأتُ إليه بيدي مقاطعًا، وقلت: هنا مربط الفرس؛ الإنسان، نعم أخي سفيان أوافقك إن الإنسان كائن تاريخي، ولكنه ليس تاريخيًا في كل حالاته، وسأسوق لك الدليل، ولنبدأ بأبو البشر الثاني نوح u ، أَلَمْ يلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ولم يؤمنوا به، ففار التنور وصدق ما وعدهم، ونجا بالقلة الذين معه، ولم يمضِ زمن حتى نكصتْ ذريته وذرية من تبعه وارتدوا عن عبادة الله.

قوم ثمود أَلَمْ يُرَغبْهُم صالح u ويُرهبهم، فاستعصموا منه وطلبوا معجزة، فانشقت الصخرة عن الناقة، لكنهم عقروها بعد أن جاءهم اليقين، فكانوا كحال السمك أو الفأر فيما سقت من استشهاد، وأَبْوّ إلا أن يذوقوا عذاب الله.

أخي سفيان لعلك تقول إن ما ذكرتُ لك من استشهاد، لن يعتدّ به بعض من يسمعه، كونه من غابر الأزمان.. فلننظر لتاريخنا الحديث، ألم يدخل العالم في الحرب الكونية الثانية، بعد أن ذاق ويلات الحرب العالمية الأولى، وفي تاريخنا المعاصر نجد بعض الأمم تحضِّر لحرب عالمية ثالثة، دون أن تعتبر من ماضيها القريب.. وبشكل أضيق، ألم تنشأ حروب هنا وهناك، وخرج منها الرابح خاسرًا، دون أن يتعظ من تجربته أو تجارب غيره.

2012-12-18

الخرطوم - السودان

● ● ● ●

في صمت

كتب مدرس اللغة العربية على السبورة: الحرب الصامتة.

التفتَ إلى الطلاب وفي بريق عينيه كلام وراء الكلام، قال: يا أبنائي لا يفصلنا عن إجازة منتصف العام إلا أيام قلائل، أتمنى أن لا يضيع وقتكم في الإجازة هدرًا، سأقرأ عليكم كلمات فدوِّنوها، لتكون لكم نبراسًا في كتابة موضوع التعبير لهذه الإجازة، بعنوان استشراف المستقبل.

ما أبدع العقل البشري، وما أروعه في أحكام التدبير، حينما ينتقي هدفه بكل وضوح، ويُسخِّر أخر ابتكاراته لإنفاذ مخططه، فما ناله قليل من البشر رغمًا عن غيرهم، بصليل السيوف وقرقعة السلاح، أو بأزيز الرصاص والطائرات، وهدير المدافع وفرقعة القنابل، صاروا اليوم يملكون ما هو أمضى وأفتك منه، إنه ما تنتجه أيديهم بالمجاهر الإلكترونية الدقيقة.

في صمتٍ تتغير جغرافيا الأرض وديموجرافيا الشعوب، لإنقاص سكان الكوكب الأزرق، وإحلال شعب بدل الآخر، وهذه ليست رؤية سوداوية، لكن اسألوا القارة السوداء.

ومن لم ولن تفلح معه المخلوقات الميكربولوجية؛ لهدم النسيج الإنساني البيولوجي، تعهدوهم بفيروس النرجس والأنا، وفيروس سفسطائية المعتقد، ليعزفوا سيمفونية الهدم الذاتي الخلاق.. وهذه ليست رؤية خيالية، لكن اسألوا سُكَّان من توسط الكوكب.

2013-9-27

الخرطوم – السودان

● ● ● ●

وقفات

استشاط أحد الأعراب(•) غضبًا لكرامة قومه، فلم يأبه بملك الأحباش وجبروته، وتغوط في كنيسته. ولم يبالي.

نازلت بنو شيبان أقوى جيوش الأرض، وصَغُرت أمامهم امبرطورية الفرس، ذودًا عن ابنة المنذر ملك الحيرة. ولم يبالوا.

دفع في مقالته عرش مُلكه، "لأن أرعى الإبل عند ابن تاشفين، خيرٌ لي من أن أرعى الخنازير عند ألفونسو"، وانتصر بابن تاشفين لينصر دينه وقومه. مات المعتمد ابن عباد وهو لا يملك شروى نقير. ولم يبالي.

ساقته النخوة من حلب، قطع القِفار والمفَازات، حتى وصل باب قائد الحملة الفرنسية في مصر(••)، وعالجه بطعنات استلَّ بها روحه. ليُعلن سليمان الحلبي بأن أمته لن تهزم. وهو يَعلم أن خازوق عدالتهم في انتظاره. ولم يبالي.

(•) هو عربي من بني مالك بن كنانة بن وهب، استفزه من أبرهة الأشرم ملك الأحباش في اليمن، أن يأمر العرب بالانصراف عن بيت الله الحرام في مكة، وأن يحجوا لكنيسة بناها في اليمن يقال لها القُلّيس، فقصد الكنيسة وتغوط بها.

(••) القائد الفرنسي الذي خلف نابليون بونابرت في قيادة الحملة الفرنسية في مصر.

ناطحَ أعتى قوى الأرض في زمانه، من على صهوة جواده أسقط الطائرات، وأسكت المدافع والمدرعات، معلنًا أن صاحب الإرادة هو الأقوى، حين قال عمر المختار لغريستياني: إن حياتي أطول من حياة شانقي. ولم يبالي.

هاله ما آلت إليه بلاده، فأرسل حِذاءيه لينال من جبروت أعتى قوة في الأرض، فكانتا أجمل قُبلة وداع لرئيس أمريكا، من منتظر الزيدي. ولم يُبالي.

كلهم أبَى حذاء الأجنبي وحدوته، وعَبَّر عن حال الأمة في ساعة هوان، فكان للتاريخ معه وقفة.

2011-9-25

فيينا – النمسا



المؤلف في سطور

- كاتب قاص وباحث وأكاديمي ليبي
- حاصل على ماجستير علم اجتماع التنمية (تنمية موارد بشرية).
- حاصل على الدكتوراه في علم اجتماع البيئة.
- رئيس قسم البحوث الاقتصادية والاجتماعية بمركز أبحاث الصحراء، الهيئة القومية للبحث العلمي، ليبيا.
- أستاذ متعاون بالجامعات الليبية.
- باحث علمي منذ 1997.
- شارك في عدد من المؤتمرات العلمية ببحوث وورقات علمية، وعدد من ورش العمل.
- حاصل على العديد من الشهادات والدورات التدريبية والتأهيلية، من منظمة اليونسكو وبريطانيا وكندا واليمن والسودان.
- له عدد من البحوث العلمية في شئون البيئة وتنمية الموارد البشرية.
- صدر له :

- ظَمــأ : مجموعة قصصية.

مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة 2015م.

- البريد الإلكتروني : gibiany89@yahoo.com

saleh.abobysir@gmail.com

الفهـرس



(+2) 01288890065 /(+2) 02 27270004

www.shams-group.net